وحدة الوجود
و
وحدة الشهود

عند سيدي أحمد الدردير رضي الله عنه

صاحب (الخريدة البهيَّة)

توضيحات مهمَّة من خلال الرَّدِّ على
أ. جاد الله بسام

بقلم :

محمد ياسر ياسر



بسم الله الرَّحمن الرَّحيم

الحمدُ لله الَّذي ظَهَرَ في المَظاهرِ بمُقتضىٰ الشُّؤون ، واسْتَتَرَ فيها وهي العدَمُ الظَّاهرُ للعيون .

والصَّلاة والسَّلام علىٰ نكتة هذه المَعارف ، ومَنبع هذه العَوارف ، وصِيغة هذه الأنفاس ، ولَمعة هذا الاقتباس ، سيدنا محمد وعلىٰ آله وصحبه أجمعين ، وبعد :

أرسل لي أخٌ كريمُ المحتد والجرثومة ، وطيِّبُ الأخلاق والأَرومة ؛ كلامًا - من عشرين صفحة - لأستاذٍ يزعم التَّحقيق ، يخوض - من غير معرفةٍ - بعباراتٍ لساداتنا أهلِ الطَّريق ، حاول فيه توجيه كلام القطب الدَّردير قدس الله سره الكبير ، في رسالته العزيزة« **مشكاة الأسرارلعارف الوقت أبي الأنوار** » ، وكلمات الإمام - في هذه الرسالة - صريحة في وحدة الوجود ، فأخذ هذا الأستاذُ - الخائض - علىٰ عاتقه بأن يُنزلها علىٰ معنىٰ وحدةِ الشُّهود !

فطالعتُ رسالة هذا الأستاذ ؛ فإذا هي مليئة بالإجحاف ، وبعيدة كلَّ البعد عن الحُجَّة والإنصاف ، حيث أخفىٰ منها ما يجب إظهاره ، وكأن شموسَ حقائِقها أعشَتْ أنظارَه ، فأردت أن أضع

علىٰ كلامه تعقيبات ، وأردَّ تعسُّفَهُ واضطرابَه بمحاسن الكلمات ، واللهَ أسأل الإعانةَ والتَّمام ، والمَددَ المُسدَّدَ باستقامة الإلهام ، ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم .

كلمات سيدي أحمد الدردير التي جرىٰ حولها البحث[1] :

قال سيدي الدردير رضي الله عنه :

« أما العارف منهم : فلما فنيَ في الله عن كل ما سواه ، حتىٰ لم يخطر بباله سوىٰ الله.. صار من أهل وحدة الوجود ؛ فلم يخاطِب بهذا الخطاب.. سوىٰ مولاه المعبود »[2]

وقال أيضاً رضي الله عنه :

« توحيد الذَّات : وهو أن لا يشهد مع الحق سواه ؛ بأن لا يرىٰ العبدُ الخصوصيُّ سوىٰ ذاتٍ واحدةٍ لا أبسط من وحدتِها ، قائمةٍ بذاتها لا تقبل الكثرةَ بوجهٍ ، مُقوِّمةٍ لتعيُّناتِها وشؤونِها التي لا تتناهىٰ ، وأنْ لا تَرىٰ أنَّ تلكَ التَّعيُّنات هي عين العين المعيِّنة لها ولا غيرها ؛ بل : تلك التعينات.. قائمةٌ بقيام الحق تعالىٰ لا بنفسها ، فهي كالظِّلِّ الذي لا وجود له إلا بوجود الشَّخص القائم ؛ فالوجود الحقِّيُّ.. إنَّما هو للذَّات الواحدِ الذي ظهرتْ آثارُه في تعيُّناتِهِ الفيئيَّة ، وهذه الوحدة بهذا الاعتبار هي المسماة بـ« وحدة

---

(١) كلها من رسالته « مشكاة الأسرار لعارف الوقت أبي الأنوار » ، واعتمدت في النقل من نسخة مطبوعة نادرة ، طُبعت بمطبعة المؤيد سنة ١٣٠١هـ .

(٢) « مشكاة الأسرار لعارف الوقت أبي الأنوار » ص٥ .

الوجـود » ؛ إذ مـا سـواها.. شـؤونٌ ومظاهـر وتعيُّنـات لـذاتِ الواجـب الوجـود ؛ حتىٰ كأنَّ وجودهـا بالنِّسـبة إليـه تعالـىٰ.. عـدمٌ وهبـاءٌ ؛ فلَـم يكـن في الحقيقـة وجـودٌ.. إلَّا للواحـد .

وقـد أشـار أسـتاذنا السَّـيد مصطفـىٰ البكـري - صاحـب « ورد السَّـحَرِ » - بقولـه في قصيـدةٍ :

ومـا الخَلـقُ في التِّمثـالِ إلَّا كَثَلْجَـةٍ
لَهَـا صُـوْرَةٌ لكِـنْ تَبَـدَّتْ عَـنِ المَـاءِ
إذا ظهـرتْ شـمسُ الوجـودِ تُذيبُهـا
فتُرجِعُهـا مـاءً بحـاءٍ مـع البـاءِ
فذو الكشـفِ لم يشـهَدْ سـوىٰ الماءِ وحدَهُ
تبـدَّىٰ بوصـفِ الثَّلـجِ مِنْ غيـر إخفاءِ
ومَـن حجبتْـهُ صـورةُ الثَّلـجِ جاهـلٌ
تَغطَّـىٰ عليـه الأمـرُ مِـن لَمْـعِ أضـواءِ

وقوله :(تَغطَّـىٰ عليـه الأمـرُ مِـن لَمْـعِ أضـواءِ).. كالعِلَّـةِ لجهلـه المركَّـبِ ؛ وذلـك أنـه ظـنَّ أنَّ لهـذه الصـورة المحسوسـةِ وجـودًا في

نفسـها ، وأنَّ لهـا أفعـالًا تَسـتقلُّ بهـا.. فقـد اعتقـدَ الشِّـركةَ »[1] انتهـىٰ كلام القطـب الدَّرديـر رضـي الله عنـه .

***

(١) المرجع السابق ص١٠-١١

قال الأستاذ جاد الله بسام في تمهيده ، مُظهراً سببَ كتابته لتلك الصفحات :

« اعلم أخي الكريم أن الباعث علىٰ كتابة هذا البحث سؤال وردني من الأخ الكريم ... طالباً دفع التباس وقع لبعض الناس في اعتقاد أهل السنة والجماعة في مسألة بعينها ، وهي ما يطلق عليه لفظ « وحدة الوجود » ، حيث نسب بعضهم الإمام القطب الدردير إلىٰ اعتقاد هذا المذهب الفلسفي الباطل ببعض كلمات تلقفها في كتابه المخطوط « مشكاة الأسرار »[1] ، فهذا هو مستهدفي من كتابتي لا غير ، بحيث يحصل التمييز التام بين المذهب الأشعري السني والمذهب الوجودي ، وكذلك حب الخير لأتباع مذهب أهل السنة والجماعة الأشاعرة والماتريدية أن تزل بهم قدم - لا سمح الله - نتيجة تهور بعض الناس واغترارهم بظاهر ألفاظ لم ينزلوها منزلتها من البحث والتدقيق ، ولم يكن لهم حظ في فهمها ولا توفيق.. » انتهىٰ كلام الأستاذ جاد الله .

قلتُ : وسببُ تعقيبي وردّي علىٰ الأستاذ جاد الله.. لكي أُثبتَ

---

(١) كتاب « مشكاة الأسرار » لسيدي الدردير ؛ ليس مخطوطاً كما زعم الأستاذ ؛ بل طُبع بتحقيق الدكتور محمد نصار ، واعتمادي كما قلتُ سابقاً علىٰ نسخة أخرىٰ مطبوعةٍ في دار المؤيد سنة ١٣٣٠هـ .

قـولَ القطـب الدَّرديـر **بوحـدة الوجـود** ، **لا علـىٰ المعنـىٰ الفلسـفي الباطـل الـذي في ذهـن الأسـتاذ وأصحابِـه** ؛ وإنمـا كمـا يريـده أهلُـه – قـدر الاسـتطاعة – إن شـاء الله تعالـىٰ .

ومن فوائد ردِّنا هذا : أنَّ القطـبَ الدَّرديـر.. هـو صاحـب « الخريـدة البهيـة » والتـي تمثِّـلُ بدَورهـا شِـعاراً أساسـياً لاعتقـاد أهـل السُّـنة والجماعـة ، وذخـراً للمبتدئيـن ، وهـذا الأمـر يهمُّنـا كثيـراً ؛ لنعـرف معنـىٰ : عقيـدة العـوام وعقيـدة الخصـوص ، وأنـه لا تناقـضَ بينهمـا كمـا يظنُّـه الأسـتاذُ وأصحابُـه .

ومـن الفوائـدِ : توضيـحُ معنـىٰ وحـدة الوجـود و وحـدة الشـهود ، وتبييـنُ خَلْـط الأسـتاذِ وأصحابـه بيـن المعنـىٰ الحقيقـي والمعنـىٰ الباطـل الـذي في أوهامهـم .

- بعـد المقدِّمـات والتَّعريـف بالإمـام الدرديـر رضـي الله عنـه فقهـاً واعتقـاداً وطريقـةً.. بـدأ الأسـتاذُ جـاد الله بسـام بسـرد مواضيـع الرسـالة إجمـالاً ، وتنـاول أغراضهـا الأساسـية ؛ لتكـون مدخـلاً يفهـم منـه القـارئُ مجمـلَ هـذه الأغـراض ، فبيَّـن أن غـرضَ هـذه الرسـالة الأساسـي هـو : شـرح قـول الإمـام سـيدي محمـد وفـا رضـي الله عنـه :

(يا مولاي يا واحد ، يا مولاي يا دائم ، يا علي يا حكيم)

ونقلُ نحن بدورنا قولَ الإمام الدردير رضي الله عنه وما قاله في رسالته هذه ؛ ليكونَ القارئُ علىٰ درايةٍ أكبر ، وهو قوله قدِّس سرُّه :

« فقد التمس مِنِّي بعضُ الأحباب الذين لا تسعني مُخالفتهم ، أن أتكلَّم علىٰ بعض شيءٍ مما حواه قولُ العارف الأكبر والعلَمِ الأشهر ، والغوثِ الفرد الجامعِ الأنور ، مَن أجمَعَ العُلماءُ والعارفون علىٰ إمامته وصِدِّيقيتِه وأنَّه القطبُ الأوحد ، والسَّيدُ الأمجد ، سيدي محمد وفا ، أبو العارف الأكبر سيدي علي وفا الأنور رضي الله عنه وعن والدَيه وأولاده وعنَّا بهم ، آمين .

وهو قوله في تَوَجُّهاتِهِ وتَوَسُّلاتِهِ وتَنَقُّلاتِهِ في أحزابه وأحواله : يا مولاي يا واحد ، يا مولاي يا دائم ، يا علي يا حكيم »[1] انتهىٰ

قلتُ : هذه ألقابُ سيدي محمد وفا - رضي الله عنه - لدىٰ الإمام الدردير ، بل عند أهل السُّنة قاطبة ، وأيضًا هذه أوصافُ

---

(١) « مشكاة الأسرار » ص٣ .

ولـده العـارفُ الأكـبر سـيدي علـي وفـا الأنـور قـدس سـره .

وهنـا نَقِـفُ - قبـل البـدءِ بنقـد كلمـاتِ الأسـتاذ جـاد الله - علـىٰ أمـرٍ لا بـدَّ منه ، لمعرفة تخبُّطِ منهج المدرسةِ التي خـرج منها الأستاذ جاد الله بسـام بهذا الفهـم ، في أخذِهـم لكلامِ سـاداتنا أهل التَّصـوف ، وهو :

إقـرارُ الإمـام الدردير رضي الله عنه بهذه المعـارف العالية الأطراف ، لهـؤلاء السـادة الأشـراف.. يقضـي بأنهـم علـىٰ الجـادَّةِ المسـتقيمة ، والعقيـدةِ الطَّاهـرة السَّـليمة ، والقلـوبِ المقوِّمـة القويمـة ، وإننـا إذ نقـول هـذه البدهيـات ؛ لأن الأسـتاذ جـاد الله بسـام.. تغافـل تمامـاً عـن مدرسـة الإمـام الدردير رضـي الله عنـه ، الـذي تلقَّـىٰ عـن شـيخه العارف الكبيـر سـيدي مصطفـىٰ البكـري رضي الله عنه (ت :١١٦٢هـ) صاحب الرسـالة المشـهورة بــ : « **المنهـل العـذب لـذوي الورود في كشـف معنىٰ وحـدة الوجـود** » !

وسـيدي مصطفـىٰ تلقـىٰ بـدوره عـن عـارف وقتـه **سـيدي عبـد الغنـي النابلسـي** قـدس سـره ، حامـلِ لـواء إظهـار أسـرار **وحـدة الوجـود** !

بـل : قـد قـرأ السَّـيدُ مصطفـىٰ البكـري - شـيخ القطـب الدرديـر - علـىٰ شـيخه العـارف عبـد الغنـي النابلسـي : كتـابَ « **فصـوص الحكـم** » وكتـابَ « **التدبيـرات الإلهيـة** » وقِطَعـاً مـن « **الفتوحـات المكيَّـة** »

جميعها **للشيخ الأكبر محيي الدين بن العربي** رضي الله عنه !

وقلنا : تغافل الأستاذ جاد الله بسام عن هذا.. لأنه قد ذكر ذلك في الحاشية (ص١٣) في ترجمة السيدي مصطفىٰ بكري رضي الله عنه ، ولم يُعَقِّب الأستاذُ بشيءٍ ، ولم ينبس ببنت شفه ! فاعجب ما شئت أن تعجب ؛ إذ كيف يردُّ الأستاذُ علىٰ مفهوم وحدة الوجود وينزِّه العارف الدردير عنها ، في حين أنَّ مدرسةَ العارف الدردير.. قائمةٌ علىٰ هذه المعارف ، سُداها ولحمتها منها ، كما ذكرناه ، وكما سنوضِّح ذلك إن شاء الله من خلال ردنا هذا علىٰ الأستاذ بما لا يدع مجالاً للشَّكّ ؟!

وعلىٰ هامش رَدِّنا هذا نقدِّم مايفيد القارئ الكريم ، فنقول :

ربَّما نسي الأستاذُ بأن شيخه سعيد فودة.. قد طعن هو الآخر بعقيدة وتوحيد سيدي العارف الأكبر علي وفا الأنور - كما لقَّبه العارفُ الدردير - وعقيدة شيخ الشيوخ أبي مدين التِّلمساني رضي الله عنهما ؛ إذ قال الأستاذُ سعيد فودة في رسالته« مِنح الودود » :

« ابن وفا حسب ما يظهر لي من قراءة ما نُقِلَ عنه.. قائلٌ بوحدةِ

الوجود علىٰ معناها الباطل »[1]

وقال الأستاذ سعيد فودة أيضًا :

« فالحاصل أنَّنا نخالف الصَّاوي في فهمه لكلام ابن وفا ، والتِّلمساني ، فهو يحمل كلامَهما علىٰ المعنىٰ الصَّحيح المقبول عنده ، ولكننا نرىٰ أن كلامهما ليس كذلك ، وحمله علىٰ ما قال.. يحتاج إلىٰ قرائن أخرىٰ قد لا تتوفر له »[2]

قلتُ : قوله :« ولكننا نرىٰ أن كلامهما ليس كذلك » أي : هُما قائلَين عنده بالوحدة الفلسفية الباطلة ، هذا يعني بكلِّ وضوحٍ ؛ بأنَّ عقيدة سيدي ابن وفا الذي يعظِّمه أهلُ المعرفة مِن أهل السُّنة – كالإمام الدردير –.. عقيدةٌ فاسدةٌ ضلاليَّةٌ ؛ وليست توحيداً معتبراً عند أهل الحق كما يراه الشَّيخ سعيد ، حيث قال كما سلف : « قائل بوحدة الوجود علىٰ معناها الباطل » !

ولا يبعد أن يقولَ هنا كما قال هناك ، فيقول مثلاً : نحنُ نخالف الدردير في فهمه لكلام ابن وفا ...الخ !

---

(١) « منح الودود في بيان وحدة الوجود » ص٨٣ .

(٢) المرجع السابق ص٩٣ .

ولعمري فإن هذا هو التَّحريف ، بل هو التَّسخيف لفهوم العلماء وحصر الفهم عنده ، فإنّا لله وإنَّا إليه راجعون .

وعليه :

فإما أن يكون شيخه الأستاذ سعيد .. قد فهم وحدة الوجود ، فأدَّاه فهمه لتقرير فساد كلام سيدي علي وفا رضي الله عنه !!

أو يكون الأستاذ جاد الله هو الذي فهمها ليتابع الإمام الدردير في تسييده والتَّرضي عنه وتقريرِ كلامه وتنزيهه عن وحدة الوجود !! **وكِلا الأمرين مُرٌّ** عليهما ؛ لأنه يؤدي لطعنِ فهمِ أحدِهما .

ونحن نقول : كلاهُما لا يفهم وحدةَ الوجود ؛ وإنَّما في أذهانهم معنىٰ باطل يقيسون عليه ؛ فيرمون العلماء بقلَّة الفهم تارةً ، وبالتَّصغير لهم تارةً أخرة ! وبِلَيٍّ نصوصهم مراراً وتكراراً كما سترون في ردِّنا إن شاء الله .

وكما هي عادة الشيخ سعيد في تحليله لكلام الإمام الصَّاوي أو الحُجَّة الغزالي أو السَّيد الشَّريف الجرجاني ، وكما ذكرنا من قبل في بعض كتاباتنا علىٰ وسائل التواصل إضافةً لطعنه في توحيد سيدي علي وفا.. طعنه بتوحيد سيدي أبي مدين الغوث(شيخ الشُّيوخ) ،

والإمامِ الكَوراني ، والعلامةِ العيَّاشي ، والإمامِ أحمد رضا البريلوي ، وطَعْنَ تلاميذه بتوحيدِ سيدي أرسلان الدِّمشقي ، وسيدي ابنِ عجيبة ، وسيدي عبدِ المجيد الشّرنوبي ، وغيرهم..

ثم ماذا يقول الأستاذ جاد الله بسام بما نقله سيدي الإمام الشعراني عن سيدي محمد وفا رضي الله عنه ، فقال :

« وكان - سيدي محمد وفا - رضىٰ الله عنه ، يقول : قال لي الحق : ... أنت عين حقيقتي ، وكلُّ شيءٍ مجازك » انتهىٰ[1]

بل لو أظهرنا من كلمات سيدي محمد وفا.. عُشرها ؛ لكَفَّرَه أهلُ الفهم الجاحِد ، والعقلِ المعقول الجامد ؛ لذا تركناها رحمةً بالضِّعاف ، واقتداءً بسيدي الشعراني رضي الله عنه في« طبقاته » حيث قال في آخر ترجمة سيدي محمد وفا : « وأطال في ذلك بما لا تسعه العقول ، فراجِعْهُ » انتهىٰ[2] .

قلتُ : إنَّما بدأنا الردَّ بهذه المقدمةِ ؛ ليعلم القارئُ فسادَ منهجِ مدرسة الأستاذ سعيد فودة في طريقةِ أخذِهم وردِّهم لعلوم السَّادة

---

(١) « الطبقات الكبرىٰ للشعراني » (٢/ ٢٠)

(٢) « الطبقات الكبرىٰ للشعراني » نفس الموضع السابق فيها .

الصُّوفيـة ، حتـىٰ يكـون كلامُنـا فيمـا بعـد مفهومـاً أوائلـه وأواخـره .

وحتـىٰ يعلـم القـارئ تمحُّلاتهـم ، فإنهـم متـىٰ أرادوا.. أوَّلـوا الكـلام ، ومتـىٰ شـاؤوا.. قدحـوا في أيِّ إمـام !! وإن هـي إلَّا الأهـواء ، ولا شـيءَ غيـر ذلـك .

***

نعود لمتابعةِ ردِّنا علىٰ الأستاذ جاد الله بسام حيث تابع بقوله :

(ولشدة رسوخ هذا اللفظ في السادة الوفائية جرىٰ علىٰ ألسنة الكل منهم ، عارفين وغير عارفين ، يقول الشيخ الدردير : « فإذا أراد أحد منهم مخاطبة صاحبه في مهم ، يقول له : يا مولاي يا واحد » . ويفهم من كلام القطب الدردير أن هذا اللفظ قد يجري لبعضهم علىٰ سبيل العادة جري اللسان فقط ، لا عن شهود صحيح ، ولا فكر مليح ، ولذلك قال بعده مباشرة مفصلا ومميزاً :

« أما العارف منه ، فلما فني في الله عن كل ما سواه حتىٰ لم يخطر بباله سوىٰ الله ، صار من أهل وحدة الوجود ، فلم يخاطب بهذا الخطاب سوىٰ مولاه المعبود ، وإذا كان المحجوب يرىٰ أنه يخاطب ذلك الشخص ، فربما اعترض عليه وهو لا يدري ، فهو في بون والعارف في بون ... وأما غير العارف من المريدين منهم ؛ فخاطبه بذلك إما تشبها بهم .... وإما أن يكون كلامه علىٰ حذف المضاف ، أي : يا أهل هذا الحزب المبدوء بـ : يا مولاي يا واحد ، وبالجملة فالاعتراض عليهم مقت من الله ، والعياذ بالله ، اللهم أرنا معالم التحقيق ، واسلك بنا أنفع طريق ») انتهىٰ كلام الأستاذ وما نقله عن سيدي الدردير وقد ميزناه بلون مختلف .

ونحن ننقل كلامَ سيدي الدردير - كما هو - ونوضِّح منه بعضَ الأمور ، ثم نردُّ ما يحتاج للردِّ من فهم الأستاذ جاد الله لهذا النص .

فالإمام الدردير رضي الله عنه يقول :

« ثم لما كانت هي الاسم الأعظم والكنز المطلسم.. اختارها في جميع أطواره لكثرة بركتها ، حتىٰ صارت من شِعارهم ، فإذا أراد أحدٌ منهم مخاطبةَ صاحبه في مُهمٍّ.. يقول له : يا مولاي يا واحد .

أما العارف منهم : فلما فنيَ في الله عن كلِّ ما سواه - حتىٰ لم يخطر بباله سوىٰ الله -.. صار من أهل وحدة الوجود ؛ فلَمْ يخاطِب بهذا الخطاب سوىٰ مولاه المعبود .

وإن كان المحجوب يرىٰ أنه يخاطب ذلك الشخص ، فربما اعترَضَ عليه وهو لا يدري ، فهو في بون ، والعارف في بون ، كما قال بعضهم :

أَرَىٰ رَسْمَهَا أَضْحىٰ يُعَوِّضُ عَنْ رَسْمِيْ

فَمَا بالُهُمْ في الحَيِّ يَدْعُونَنِيْ باسمِيْ ؟

وأما غير العارف من المُريدين منهم : فخطابه بذلك ؛ إمَّا تَشَبُّهًا

لهم ، علىٰ حد قوله :

فتشـبَّهوا إنْ لَـمْ تَكُونُـوا مِثْلَهُـمْ
إنَّ التَّشـبُّهَ بالكِـرَامِ فَـلاحُ

وإمَّـا أن يكـون كلامـه علـىٰ حـذف المضـاف ، أي : يـا أهـلَ هـذا الحـزب المبـدوء بـ: يـا مـولاي يـا واحـد .

وبالجملة : فالاعتراضُ عليهم مَقْتٌ من الله ، والعياذ بالله ، اللهم أرِنـا معالِمَ التَّحقيـق ، واسلُك بنا أنفع طريق »[1] انتهىٰ كلام العارف الدردير قدس سره .

ويُفهم منه ما يلي :

- تكـراره علىٰ ألسِنة الخـواصّ والعـوامّ مـن السَّادة الوفائيـة ؛ إنَّمـا هـو لكثـرة بركاتها ؛ لأنَّهـا الاسـم الأعظـم والكنـز المطلسـم ، وهـذا سـبب رسـوخِه في ألسـنتهم وانطباعِـه في قلوبهـم وأطوارهـم ، حتـىٰ أضحـىٰ شِـعارهم .
- جـري هـذا اللفـظ علىٰ ألسـنتهم ، ومنـاداة بعضهـم للبعـض

(١) « مشكاة الأسرار » ص٥-٦ .

الآخر به عند المهمات ، فيقول أحدهم للآخر : « يا مولاي يا واحد » .

- لَـمَّا كان توجيه هذا النِّداء - الذي ينادىٰ به الحق وحده - إلىٰ الأشخاص موهِماً.. قسَّم الإمامُ الدردير المُنادي إلىٰ قسمَين : العارف ، وغير العارف .
- **أما العارف** : فيقوله متحققاً بـ(وحدة الوجود) ؛ ولذلك ينادي هذا العارف بهذا النداء أيَّ مَظهرٍ مِن المَظاهر ؛ لأنها شؤون الوجود الحقِّ - كما سيشرحه القطب الدردير - فصحَّ خطابه ونداؤه لله وحده ؛ إذ لا وجودَ علىٰ الحقيقة في ذوقه وشهوده إلا لله .
- وفسَّر معنىٰ وحدة الوجود بشكل مُجمَلٍ هنا - وسيأتي شرحه لها بشكل مفصَّل قريباً - فقال : « فلما فنىٰ في الله عن كل ما سواه - حتىٰ لم يخطر بباله سوىٰ الله -.. **صار من أهل وحدة الوجود** ؛ فلم يخاطب بهذا الخطاب سوىٰ مولاه المعبود » .
- **وأما غير العارف**: فهو قائل بهذا لا عن شهود ؛ لكنَّ الأمام حَمَلَهُ علىٰ أنه قائلٌ بها من باب التَّشبُّه بالعارفين ، أو مِن مفهوم حذف المضاف ، أي : يا أهل هذا الحزب المبدوء بـ« يا مولاي يا واحد ... » .
- أما المحجوب الذي يرىٰ العارفَ ينادي شخصاً بهذا

النداء ؛ فسوف يُنكِر عليه ؛ لأنَّه محجوبٌ عن تحقُّق هذا العارف بوحدة الوجود ، فسوف يظنُّه ينادي الخلقَ بما يَختصُّ به الخالق ؛ لأنَّ هذا المحجوبَ جاهلٌ عن ذوقِ وشهودٍ ومقامِ هذا العارف ، وكما قال سيدي الدردير : « فهو في بَونٍ والعارف في بَون » .

ثم ساق سيدي الدردير بيتاً شاهداً في هذا الموضع لأحد كبار العارفين من القائلين بوحدة الوجود ، وهو سيدي العارف عفيف الدين التلمساني قدّس سرّه ، وذلك بقوله[1] :

أرَىٰ رَسْمَهَا أضْحىٰ يُعَوِّضُ عَنْ رَسْمِيْ
فَمَا بالُهُمْ في الحَيِّ يَدْعُونَنِيْ باسمِيْ ؟

وقد تجاوز الأستاذُ جاد الله بسام التَّعليقَ علىٰ هذا البيت والشَّاهِدِ منه فقام بحذفِه ، ووضع نقاطاً ليدلَّ علىٰ أنَّه قد حذف موضعاً مِن هنا ! وكان ينبغي علىٰ الأستاذ أن لا يحذفه ؛ لأنه قرينةٌ صحيحةٌ

---

(١) وتتمَّة القصيدة :

فهل بعد ضوءِ الشمسِ يَبدو لَكَ الدُجا ** وهل ـ عندَها ـ يَبقىٰ علىٰ الأُفْقِ مِنْ نَجْمِ؟
إذا ما دعا الداعي بـ (عَلْوَةَ) فاستَجبْ ** ولكنْ إذا أفتَتْكَ عنكَ علىٰ عَلْم
فلم تبقَ لولا أنْ بَقيتَ بها لها ** فأنت إذا حقّقْتَ مِن عالَمِ الوهمِ

فيما نقوله ونستدلُّ به عليه ؛ فإن العفيفَ التِّلمساني قدس الله سرَّه - تلميذ سيدي صدر الدين القونوي الذي هو بدوره تلميذ الشَّيخ الأكبر - عند مدرسة الأستاذ سعيد فودة.. قائلٌ عندهم بوحدة الوجود بالمعنىٰ الباطل !! إذن كيف يَستشهدُ الإمامُ الدَّردير به في ذات الموضوع ، وهو وحدة الوجود ؟

فإما أن يكون سيدي الدردير عارفًا بما يقوله ، وهُم غير عارفين !

وإما أن يجهِّلوه كما فعلوا مع العارفِ الصَّاوي وغيره مِن قبل !

ثم ختمَ سيدي الدردير هذه الفقرة بقوله : « وبالجملة : فالاعتراض عليهم.. مقتٌ من الله ، والعياذ بالله » .

أي : الاعتراضُ علىٰ عارفهم أو غير عارفهم.. مقتٌ ؛ لأن لهم مدارك صحيحة ، فالعارف متحقِّقٌ بهذا المقام - أي : وحدة الوجود - ذو مَدركٍ صحيح .

وغير العارف له ملحَظ وفكرٌ مليح ، وإن لم يكن له شهود صحيح .

فالأمر ليس كما قاله الأستاذ جاد الله بأن غير العارف لا فكرَ

مليح عنده ! وهل جَريُ هذه المعاني علىٰ لسان غير العارفين منهم بهذَين المَلحَظين اللذَين ذكرهما سيدي الدردير.. فِكرٌ غيرُ مليح ؟! والأولىٰ للأستاذ جاد الله أن ينعت بهذا المعترِضَ عليهم لا هُم !



ثم تابع الأستاذ جاد الله بتفسير فقرة الإمام الدردير هذه ، ويهمنا منها قوله :

« وأنا أرىٰ أن تأويل هذا اللفظ قريب جداً ، بل يكاد يكون هو المتبادر في عرف الخطاب لدىٰ الناس ، فلو قال إنسان لصاحبه قبل مخاطبته في شأن من الشؤون المهمة : يا مولاي يا واحد ، يعلم قطعاً أن ثمة حذفا في الكلام ، والأكثر تبادراً من الحذف أن المنادىٰ المقصود بالنداء هنا ليس هو هذا العبد المخاطب في صورة البدن واللحم ، بل هو الله تعالىٰ المبدوء باسمه في الشؤون المهمة ، علىٰ حد ما شرع لنا في الشريعة المحمدية أن نقول في ابتداء الأمور : بسم الله الرحمن الرحيم ، فعلىٰ هذا يكون الاعتراض علىٰ الوفائية بمجرد اللفظ مع وضوحه وتبادره في معنىٰ صحيح ، موجباً للمقت من جهة أنه اعتراض علىٰ من سلم حاله واعتقاده في الظاهر من مناف للشريعة والحقيقة ، خصوصا أن الاعتراض عندئذ سيكون اعتراض تكفير ، كما هو معلوم ، وهذا الاعتراض علاوة علىٰ كونه مخالفاً لواجب حسن الظن بالعباد ، فهو مخالف لقواعد الشريعة من البعد عن تكفير المسلم الذي ثبت إسلامه بمجرد الشبهة من غير دليل ، بل فيه تجاوز لأحكام الشريعة ، من حيث إن ذلك حق الإمام يقوم به القاضي ، لا أفراد الناس وسوقتهم ، فإذا تجاوز المعترض كل هذه التجاوزات فهو لعمر الحق حقيق بالمقت ، وكيف لا يمقت

وقد فاه بكلمة أباح بها دما وتحكم بأعراض وأموال » انتهىٰ كلام الأستاذ جاد الله !

قلتُ : ليتَه يتعامل هو وشيخه الأستاذ سعيد وأصحابه.. بهذا التأويل لكل ما رأوه من كلام القوم المشكل الظاهر ، ويستخرج لهم هذه الأعذار لذات العلل الشرعية التي ذكرها هنا !

وخصوصاً أن مَن ينكرون عليهم من أمثال الشيخ الأكبر.. قد تواتر الخبر بسلامة أحوالهم وأعمالهم ومجاهداتهم وقيامهم بالعمل بالشريعة علىٰ أتم ما يكون ، وهو أمر اعترف به الأعداء قبل الأحبَّاء ، ولكن ما نراه من هجومهم.. هو عكسُ كل هذا ، حتَّىٰ تجرَّأ بعض المتأثِّرين بهم إلىٰ تكفير الشيخ الأكبر وأضرابه ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .



* **محاولةُ الأستاذِ العسيرة لتأويل وحدة الوجود** - التي قال بها القطب الدردير - إلىٰ وحدة الشهود علىٰ زعمهم ، فقال :

« وهذه المرتبة الثانية كما شرحها الإمام الدردير راجعة إلىٰ شهود العبد ، أو فلنقل إلىٰ انفعاله وكيفيات نفسانية حاصلة له ، فهي واقعة في نفسه ذوقاً وشهوداً ، لا حكماً محاكياً لما في نفس الأمر ، بل نفس الأمر عنها بمعزل أي معزل ، ولذلك قال القطب الدردير :« أما العارف منه : فلما فني في الله عن كل ما سواه حتىٰ لم يخطر بباله سوىٰ الله.. صار من أهل وحدة الوجود » . فانظر كيف أن اللفظ جرىٰ من العارف بقيد لحاظه وملاحظته وما خطر بباله، أي كيفياته النفسانية، وكل ذلك معزول عن الواقع الحق، ومباين لنفس الأمر الصدق .

وأما قول القطب الدردير :« **صار من أهل وحدة الوجود** » ، لا يخفىٰ مراده بعد ما سبق من البيان في وحدة الوجود هنا بمعنىٰ« وحدة الشهود المباينة لذلك الاعتقاد الفاسد في المعنىٰ ، وإن كانت مشاركة في اللفظ » انتهىٰ كلام الأستاذ جاد الله **!!**

يُفهم من كلامه هذا :

- المرتبة الثانية التي يقصدها الأستاذ ؛ هي المرتبة التي

للعـارف ، والتـي وجَّـهَ بها هـذا العـارفُ خطابَـه لصاحبـه عنـد المهمَّـات بـ(يامـولاي يـا واحد..) وهـي التـي أسـماها مولانـا الدرديـر بـ(أهـل وحـدة الوجـود) .

- هـذه المرتبـة عنـد الأسـتاذ جـاد الله بسـام.. ترجِـعُ إلىٰ واقـع العبـد النَّفسـي الدَّاخلـي ، وليـس إلـىٰ الواقـع الخارجـي النَّفس أمـري ! وعبَّـر الأسـتاذُ عـن هـذا الواقـع النَّفسـي لهـذا العبـد بـ: انفعـال و كيفيـات نفسـانية حاصلـة للعبـد .

- هـذا يعنـي أن مـا يشـاهده العبـدُ.. لا يطابـق الواقـعَ أو نفـسَ الأمر(بل: نفـس الأمـر عنهـا - أي عـن هـذه المرتبـة - بمعـزل أي معـزل) كمـا عبَّـر الأسـتاذ !

- فاللفـظ الـذي جرىٰ مـن هـذا العبـد العـارف - وهـو نـداؤه لصاحبـه كمـا سبق - مقيَّـدٌ بملاحظـة مـا خطـر ببالـه ، ولـم يخطـر ببالـه إلا الله ، فالنـداء موجـه لله ، وليس لأنَّ هـذا العبـدَ أراد أن ينـادي مَظهـراً مِـن مَظاهـر الحـق - في الواقـع - لا يُشـاهد فيـه إلَّا الحـقَّ !

- كلُّ هـذه المُشـاهدة ؛ بعيـدةٌ عـن الواقـع الثَّابـت ، ومباينـةٌ لنفْـسِ الأمـر الـذي تكـون مُطابَقتُـه.. حقيقـةَ الصِّـدق !!

- بنـاءً علـىٰ ماسـبق – كمـا يقـول الأسـتاذ جـاد – فـإن قـول العـارف الدَّرديـر بـ(وحـدة الوجـود) تعنـي (وحـدة الشـهود) !

- إذن ؛ مـا سـبق بيانـه مـن الأسـتاذ جـاد الله.. هـو تفسـير معنـىٰ (وحـدة الشـهود) المباينـة لـ (وحـدة الوجـود) في معناهـا ، وهـي – وحـدة الشـهود – مـراد القطـب الدرديـر كمـا يزعـم الأسـتاذ ، ولكـن سـيدي الدرديـر أطلـق لفـظ (وحـدة الوجـود) مـكانَ لفـظِ (وحـدة الشـهود) فقـط ، ولـم يُـرِد منـه إلا هـذا المعنـىٰ **!!** وهـو معنـىٰ قـول القطـب الدرديـر : (فلمـا فنـي في الله عـن كل مـا سـواه حتـىٰ لـم يخطـر ببالـه سـوىٰ الله) . **هكـذا زعـم الأسـتاذ !**

هـذا تفصيـل عبـارة الأسـتاذ ، وكمـا تـرون فقـد بيَّناهـا علـىٰ ركاكتهـا وتكلُّفاتهـا ، **وتعليقنـا علـىٰ هـذه التكلفـات أن نقـول** :

- كلُّ الـذي أراد شـرحه الأسـتاذ فيمـا سـبق ؛ إنَّمـا ليشـرحَ معنىٰ(الفنـاء) الـذي ذكـره سـيدي الدَّرديـر قـدس الله سـره بقولـه: ((فلمـا فنـي في الله عـن كل مـا سـواه ؛ حتـىٰ لـم يخطـر

ببالـه سـوىٰ الله)) ، أي: الفنـاء في الله.. هـو فناء عن كلِّ ماسـواه تعالـىٰ ؛ بحيث لا يخطـر ببـال العبـد إلا الله ، هـذا معنـىٰ ظاهـرٌ مـن كلام سـيدي الدرديـر .

- **والفناء يكون علىٰ ثلاث مراتب :**

فنـاءٌ ، ثـم فنـاءٌ عـن الفنـاءِ ، ثـم التَّمكُّـن مـن الفنـاءِ ؛ حتـىٰ يصيـرَ مقامـًا وهـو – أي هـذا الأخيـر – المعنيُّ بـ البقاء .

نشـرح شـرحـًا سـريعـًا للأحبـاب القـرَّاء لتبييـن معنـىٰ هـذه المُصطلحـات :

- **الفَنَاء**: شـهودُ حـقٍّ بـلا خَلـق ، مـع شـعور الفـاني بأنـه في فنـاء ، بمعنـىٰ أنـه يشـعر بنفسـه مـع فنائـه عمَّـا سـوىٰ محبوبـه سـبحانه (وصاحـب هـذا الحـال لـم يكتمـل فنـاؤه) .
- **فَنـاء الفَناءِ**: شـهود حـقٍّ بـلا خَلـقٍ ، مُطلقـًا ، فهـو لا يَشـهد بقلبـه غيـرَ الحـقِّ سـبحانه ؛ فهـو فـانٍ حتـىٰ عـن نَّفْسِـهِ .
- **البقاء**: هـو شـهودُ الخَلـق بالحـقِّ ، أي: يعـود لـه التَّمييـز ؛ لكـن خـلاف تمييـز أهـل الحِجاب .

فعن أيٍّ من هذه المراتب كان كلامُ سيدي الدردير قدس الله سرَّه ؟

تعالوا لنرىٰ :

- **وحـدة الشـهود:** هي حـالٌ وجـداني وهبـيٌّ ؛ لا يتعمَّلُـه العبـد متـىٰ مـا أراد ، ثـمَّ إنَّ الغريـقَ بهـذا الحـالِ الشُّـهوديِّ - بحيث لا يشـاهد إلا مـولاه -.. **لا يُتصـوَّر منـه السُّـؤالُ أو النِّـداءُ في المُهمَّـات** ، وأيُّ مهمـاتٍ يَشـعرُ بهـا أصـلاً وهـو غريـقٌ بمشـاهدة الحـقِّ ؟!

ولذلـك كان مـن تعريـف سـيدي أبـو بكـر الكلابـاذيِّ للفنـاء قولـه في كتابه« التعرُّف »: (**وَيسْـقط عَنـهُ التَّمْيِيـز**)[1] ؛ أي: يسـقط التَّمييـز بيـن الأشـياءِ عـن الفـاني ؛ لأنـه لا اثنينيَّـة في شـهودِه أصـلاً ، فهـو لا يُشـاهد إلَّا الحـقَّ ، ومِـن هنـا سُـمِّيت هـذه **الحالـةُ** بـ **وحـدة الشُّـهود** .

- العـارف الدرديـر رضـي الله عنـه.. أخـبرَ بـأنَّ هـذا العـارفَ يُشـاهِد صاحبَـه ، ويَعرفُـه ، ويُميِّـزه ، ويُنـادي عليـه بهـذا النِّـداء عنـد المُهمـات ؛ وهـذا يعنـي أنَّ هـذا العـارفَ.. يسـتحضر هـذا المعنـىٰ متـىٰ شـاء ؛ بل: **هـو حاضـرٌ معـه في كل وقـت مـع التَّمييـز**، وهـذا يعنـي أنـه بصَحْـوٍ لا سُـكْرٍ ، وبقـاءٍ لا فنـاءٍ ، وأنـه يميِّـز بيـن صاحبـه في الطَّريقـة فيناديـه بـه عنـد المُهمـات ولا

---

(١) « التعرُّف » ص٣٢١

ينادي سواه ، **وكل هذه المعاني تنافي معنىٰ وحدة الشهود !!** إذ أن وحدة الشهود كما سبق وقلنا: هي شهود حقٍّ بلا خلق ، وهي حالٌ وجداني يَمحق الخَلقَ مِن الشُّهودِ ؛ فلا يُشاهِد بقلبِه إلَّا الواحدَ المَقصود .

وكما قال سيدي أحمد ابنُ عجيبة الحسنيُّ رضي الله عنه ، في شرحه لحكم سيدي ابن عطاء الله رضي الله عنه :« **والحاصِل**: أنَّ العبدَ ما دام غائباً عن نفسه ، فانياً في شهود ربه ، منقطعاً عن حِسِّه.. **لا يُتصوَّر منه طَلَبٌ أصلاً ؛ إذ الطَّلبُ يقتضي وجودَ الاثنينيَّةِ** ، والفَرضُ أنَّه غريقٌ في بحر الوحدة ؛ فطلبه حينئذٍ.. سوءُ أدبٍ في حقِّه »[1] اهـ كلام سيدي ابن عجيبة رضي الله عنه .

أي: فإنَّ طلبَه حينئذٍ.. يدلُّ علىٰ أنَّه غيرُ فانٍ أو غير مُتحقِّقٍ في الفناء ، وهذا سوءُ أدبٍ ؛ لأنَّه صاحبُ دعوىٰ .

إذن ؛ فوحدة الشُّهود - بحسب ما سبق -.. لا تَشمل البقاءَ .

وبعد كل ما تقدَّم ؛ فلا تُحمل عبارةُ سيدي الدردير.. إلا علىٰ معنىٰ البقاء ؛ وهو شهود الخلق بالحق ، أو قُل: شهودُ الخَلق

---

(١) « إيقاظ الهمم في شرح الحكم » آخر الباب الثامن عشر .

مظاهر الحق ، أو قل: شهودُ خَلقٍ بحق أو حقٍّ بخَلق ، كيفما شئتَ فقل ما عُرِفَتِ المعاني وتَمَيَّزَتِ الحيثياتُ .

فيكون معنىٰ عبارة سيدي الدردير: « **فلما فنيَ في الله عن كل ما سواه** » إذ لا موجودَ علىٰ الحقيقة عنده إلَّا الله « **حتىٰ لم يخطر بباله** » في كلِّ ما يراه « **سوىٰ الله** » ظاهراً في هذه المَظاهر.. « **صار من أهل وحدة الوجود** » الحقِّ الظاهر في كلِّ موجود .

غير هذا المعنىٰ الذي شرحناه - كما ترون -.. لا يصحُّ ، وإلَّا فإنَّ سيدي الدَّردير يتكلَّم من غير درايةٍ بالاصطلاح ولا فهمٍ للمعاني !! حاشاه حاشاه ، نفعنا الله بأنفاسه . آمين .

- فإن قيل: هل هناك ما يؤيِّد هذا الكلام أكثر ؟

قلت: نعم بلا ريب ، فإننا لم نتكلم بعدُ عن تصريح العارف الدردير ؛ وإنما أطلنا الكلام هنا ؛ لأنَّ تعريف القطب الدردير لوحدة الوجود هنا كان مُجملاً ، فتلقَّفَه الأستاذُ جاد الله لكي يشرحه بحسب مايَشتهي ، وها قد أظهرنا لكم عُجَره وبُجَره ، وهذا حالُ كلِّ مَن يخوضُ فيما لا دخل له به ، فهو لعمري ما فهِمَ من وحدة الوجود شيئًا ، بل ولا من وحدة الشهود أيضًا .

ولذلك قال سيدي الإمام الدردير رضي الله عنه ، بعد ما وصف معنىٰ وحدة الوجود وتابع شرحَ العبارة: « **ولما تحقق هذا الأستاذ الأعظم بهذا المقام قام بحق العبودية ذاكراً، ولآلاء نعم ربه شاكراً** » انتهىٰ

فانظر كيف وصف هذا الأمر بـ (التَّحقيق) فقال :« **تحقَّقَ** » ؛ وهذا لا يكون لحالٍ كحال وحدة الشهود ؛ وإنَّما لمقامٍ يتحقَّق به صاحبُه ، ولذلك أكَّدها بقوله :« **ولما تحقَّق** هذا الأستاذُ الأعظم بهذا المقام.. **قام بحقِّ** العبوديةِ ذاكراً » ؛ فانظر هذه المؤكِّدات الضرورية ، وهي تصريحاتٌ لا إشاراتٌ ؛ فإنَّ وحدةَ الشُّهود.. حالٌ من الأحوال الذَّوقيَّةِ كما شرحناه سابقًا ؛ بينما وحدة الوجود مَقامٌ مِن المقامات المعتبرة الحقيَّة ، والقطب الدردير يقول بأنَّ سيدي ابن وفا قدِّس سرُّه.. تحقَّقَ بهذا المقام ! فأين هذا مِن تعليق الأستاذ جاد الله علىٰ هذا العبارة ؟!

تعالوا لنرىٰ كيف حرَّفها الأستاذُ وقلَبَ معناها إذ قال :

« وإن من كلام القطب الدردير شواهد لفظية واضحة تصرف« وحدة الوجود » عن معناها الفلسفي الباطل ، فانظر كيف قال لما انساب في بيان معنىٰ الكلمة الوفائية وذكر حال سيدي محمد وفا رضي الله عنه ، قال :« ولما تحقق هذا الأستاذ الأعظم بهذا المقام قام بحق

العبودية ذاكراً ، ولآلاء نعم ربه شاكراً » انتهىٰ كلام الأستاذ جاد الله .

قلتُ: انظر أيها القارئ الكريم كيف جعل مِن المقام حالاً ؛ حيث قال : (وذكر **حالَ** سيدي محمد وفا..) !

وكيف جعل من التَّحقيق والتَّحقُّقِ شهوداً ؛ والشُّهودُ عند الأستاذِ.. مخالفٌ للواقع كما صرَّح بما نقلناه عنه ، **فأين التَّحقيق والتَّحقُّق في مخالفة الواقع ؟!!**

- بل أزيدكم من الشعر بيتًا :

كيف لمن هو في حالِ وحدة الشُّهود – وهي فناء حاليٌّ تامٌّ – أنْ ينظرَ إلىٰ آلاءِ نِعَمِ ربِّهِ وأنْ يقوم بحقِّ العبوديَّةِ ؟!

ألم يخبرنا الأستاذُ وشيخُه سعيد فودة بأن وحدة الشهود.. نقصٌ ؛ لأنَّ صاحبها لا يرىٰ الخَلقَ ، وإنَّما الكمال بأن يراهم ؟!

فكيف لصاحب وحدة الشُّهود – وهي نقصٌ – أن يرىٰ آلاء اللهِ وهي نِعمُهُ المتكثَّرة بلهَ أنْ يتحقَّق بأعلىٰ المقامات وهي العبوديَّة ؟! فهل يكون نقصا وكمالاً ؟!

بـل إنَّ الأسـتاذ جـاد الله لـم يعَقِّـب علـىٰ قـول الإمـام الدرديـر بعيـد هـذا ؛ بـل لـم يـأت بـه ، وتجـاوزه ، ولمَّـح لـه تلميحـًا خجـولاً فقـط كمـا سنبيِّنه ، وهـو الـذي يهـدم كلَّ كلام بنـاه الأسـتاذُ غفـر الله لـه ، وهـو قـولُ القطـبِ الدرديـر رضـي الله عنـه :

« **فِقـهٌ** : علمـتَ أن هـذه المناجـاة بهـذا الاسـم الشَّـريف.. تضمَّنـت الشُّـكرَ مـن العبـد لمـولاه ؛ حيـث أولاه ووالاه . وهـذا هـو عيـن الاستسـلام والانقيـاد الىٰ الله ، **وهـو مقـام البقـاء بـالله بعـد الفنـاء في الله** ؛ ولـذا قـال في مناجـاة أحبابه: أسـلمت لله ، فنيـت في الله ، بقيـت بـالله ، وهـذا شـأن مَـن لا يـرىٰ سـوىٰ الله »[1] انتهـىٰ كلام سـيدي الدَّرديـر .

فانظـر يرحمـك الله ، بأن« **مقـام** » وحـدة الوجـود الـذي لا يَـرىٰ فيـه العبـدُ إلا الله.. **هـو مقـامُ البقـاء بعـد الفنـاء** ، وليـس هـو الفنـاء ؛ **وإنمـا وحـدة الشُّـهود.. حـالٌ مـن أحـوالِ مقـام الفنـاء** ، فليفهـم .

فـإنَّ هـذا التَّصريـحَ لا أبيـن منـه مِـن حضـرة سـيدي القطـب الدرديـر رضـي الله عنـه ، فهـو يهـدم كلَّ كلام الأسـتاذ جـاد الله بسـام وكلامِ شـيخه الأسـتاذ سـعيد فـودة الـذي يكـرره في مجالسـه وصدعـوا بـه رؤوسـنا عنـد تفريقـه بيـن وحـدة الوجـود ووحـدة الشـهود ، ويظنـون أنَّهـم قـد عرفـوا

---

(١) « مشكاة الأسرار » ص٩ .

المقصـود ، ونحـن كنـا إذا سـمعنا كلامهـم نقـول : الحمـد لله الـذي عافانـا مـن فهـمٍ غيـر محمـود .

هـذا هـو التَّحريـف الحاصـل مـن الأسـتاذ جـاد الله علىٰ عبـارة الإمـام الدرديـر كمـا رأيتـم ، وقـد كشـفنا لكـم النِّقـابَ عنـه بمـا لا يـدع مجـالاً للشَّـك والارتيـاب ؛ بـأنَّ القطـب الدرديـر قـدس سـره إنَّمـا يقصـد وحـدةَ الوجـود لا وحـدةَ الشُّـهود ، وسـنزيدكم بـإذن الله تعالـىٰ ، فإنـا لله وإنـا إليـه راجعـون .

- أمَّـا تلميـح الأسـتاذ جـاد – الـذي أشـرنا لـه – هـو قولـه : « وهـذا المعنـىٰ أكَّـده القطـب الدرديـر ، حيـث نَـصَّ أن **حـال** الكمـال وغايـة عـروج السـالكين هـو البقـاء بعـد الفنـاء ، وأنَّـه **الحـال** الأكمـل عنـد أهـل الله تعالـىٰ مـن العارفيـن وهـو الـذي وصـل إليـه سـيدي محمـد وفـا بحسـب كلام القطـب الدرديـر » انتهـىٰ كلام الأسـتاذ جـاد الله.

قلتُ: هـذا لا يُسـمَّىٰ حـالاً ؛ بـل هـو مقـامٌ ، كمـا صـرَّح القطـبُ الدرديـر ، لكـن الـذي يظهـر لنـا أنَّ الأسـتاذَ لا يعـرف التَّفرقـةَ بيـن الحـالِ والمَقـام ، أو أنـه يتعمَّـد هـذا التَّجاهـل ، والله أعلـم ، وكِلا الأمرَيـن مذمـومٌ .

ثـمَّ كيـف يكـون مـا هـو الأكمـل عنـد العارفيـن نقصـًا مـن حيـث إنَّـه وحـدة شـهود كمـا تزعمـون ، ولا تُطابـق الواقـعَ ولا تُقاربـه ، وهـي فنـاء لا بقـاء ؟! وقـد أشـبعنا الـرد علـىٰ هـذه النقطـة بمـا يغنـي عـن الإعـادة، فمـن أراد فليعـد قـراءة مـا سـبق و يتحقَّقـه ، والحمـد لله .

وإن قيـل : مـا معنـىٰ شـهود خلـقٍ بحـقٍّ ؟! ومـا معنـىٰ أن يكـون هـذا الشـهود مطابقـًا للواقـع في حيـن أنَّنـا نـرىٰ الأشـياءَ ولا نـرىٰ غيرهـا ببداهـة العقـلِ ، فـلا نـرىٰ اللهَ فيهـا ، فكيـف تكـون مطابَقَتُهـا للواقـع ؟!

قلت :

إنَّ الـكلامَ عـن وحـدة الوجـود.. ينبغـي أن يتجـرَّد فيـه حُكـمُ الإنسـانِ عـن الحُكـم بمـا يتبـادرُ لـه في الأَذهـان ؛ وذلـك لأن علـومَ السَّـادة الصُّوفيَّة.. قائمـةٌ علـىٰ المعـاني الدَّقيقـةِ ، والإشـاراتِ الرَّقيقـةِ ، والمعـارف العميقـة ، والاصطلاحـات الوثيقـة ؛ فمِنَ الظُّلْـمِ والإجحـافِ أنْ تَحكُـمَ علـىٰ مـا يتكلَّمـون بـه بمجـرَّد مُخالفتِـه لِمـا يتبـادرُ إلـىٰ ذهنكَ ، ومَـن لـم يعتـبر هـذا.. فهـو عـن علـم التَّصـوف غريـبٌ جاهـل .

قلنـا هـذا ؛ لأنَّنـا وجدنـا الأسـتاذَ سـعيد فـودة قـد فعـل ذلـك حقيقـةً !

ففي تمهيداته للرَّدِ علىٰ أهل وحدة الوجود - وخصوصاً سيدي عبد الغني النابلسي رضي الله عنه - في كتابه« مِنَح الودود ».. تراه - سامحه الله - يسوق المعاني التي تتبادر للأذهان ؛ لِيُظهِرَ بأنَّها تُخالف ما جاءَ به السَّادة أهلُ العِرفان ، وهذا من الغرابة بمكان !!

فمثلاً تراه **يقول** :« وهذا الفهم هو الفهم الظاهر **المتبادر** إلىٰ ظاهر العقل » .

ويقول :

« ولا يصح للواحد أن يقول إن **المتبادر** إلىٰ الفهم ، هو أن وجود الأوَّل نفس وجود الثاني » .

ويقول :

« **والمتبادر** للذهن والعقل ، هو أنَّ الوجود الأول غير الوجود الثاني » .

ويقول :

« ولكن ، هل كون المعنىٰ **المتبادر** هو عينه في الحالتين أو مثله.. »

ويقول:

« وتغاير المصداق لا يستلزم تغاير المعنىٰ **المتبادر** كما لا يخفىٰ.. » .

ويقول :

« نخلص من هذا الكلام كله ، أن معنىٰ الوجود **مفهومٌ بداهة**... بل لا نريد أكثر من **مفهومه الحاضر في الذهن** عند الحكم به ... » .

ويقول :

« فإننا رأينا أن التَّغاير في الوجود المتحقق في الخارج هو الأصل ، وهو **المتبادر** إلىٰ الذهن » .

هذه بضع مواضع من رسالته تلك ، وفيها يشرح معنىٰ الوجود بما يتبادر للأذهان ؛ ومنه ينطلق لإظهار مخالفةِ أهلِ العرفان **!!**

في حين أنَّ سيدي عبد الغني النابلسي قدس سره.. صرَّح مِراراً ؛ بأنَّ السَّادة لا يقصدون المعنىٰ الذي يتبادر للأذهان في هذه المسائل ، فإنهم لا يخالفون أهل الظاهر في هذا أصلا ، كيف وعلىٰ

هذا المتبادر.. قد قام التَّكليفُ وحصل التَّشريف ، فكيف يُظَنُّ بهم أنهم ينفونَ المعنىٰ المتبادر أو يخالفون فيه ؟! لا شكَّ أنَّ هذا جهلٌ بكلامهم وبيانِ مَرامهم ، نفعنا الله بأنفاسهم ، آمين .

قال سيدي عبد الغني النابلسي رضي الله عنه ، عند إثباته للوجود الحق : « **لم نُرِدْ به معنىٰ الوجود المتبادر للأذهان** »[1].

فإذا كانوا - رضي الله عنهم - لا يريدون المعنىٰ الذي يتبادر للأذهان من الوجود.. فما هو المعنىٰ المقصود ؟

نقول :

المقصود هو الحقيقةُ التي قام بها هذا المعنىٰ المتبادر للأذهان ، فقامت به الأكوان .

يعني : ما هو الشَّيء الذي يقوم بنفسه ويقوم به غيره مع غناه عن الجميع ؟

هو الوجود الحق الواحد ، وهو القيوم سبحانه وتعالىٰ .

---

(١) « الوجود الحق » ص٤٢ .

- هـذا الوجـود الحـق يُشـاهده العارفـون ببصائرهـم وليـس بأحداقِهـم ؛ فهـو شـهود مطابـقٌ لنفس الأمـر ؛ لأنَّ نفسَ الأمر عند سـادتنا.. ليس لِما يَظهر مِن الأشياء ؛ وإنَّما لِمَن قامت بـه هـذه الأشـياء ، وهـو المعبَّر عنه بالحقيقـة .

فالحكـم للحقيقـةِ كمـا قـال حُجَّةُ الإسـلام :« لأنهـم يلحظـون الـذاتَ الحقيقـيَّ دونَ مـا هـو هالـكٌ في نفسـه »(١) ؛ فالشـيء بالنظـر إلىٰ ذاتـه.. عـدمٌ محضٌ .

- **وإن قيل**: لكـنَّ الأشـياءَ تنقسـم إلـىٰ جواهـرَ وأعـراضٍ ، والجوهرُ: مـا يقـوم بنفْسـه ، والعـرَضُ : مـا يقـوم بغيـره ، فكيـف تقولـون: إنَّ الأشـياء عـدم لا قيـام لهـا بأنفسـها ؟!

قلنا : لـو نظـرتَ ببصيرتـك لعلمـتَ أنَّ قيـامَ الجوهـرِ بنفْسـه.. لا يعني استغناؤه عـن شـرطٍ أو شـروطٍ بها يقـوم بنفْسـه ؛ فإن معنىٰ قيـامِ الجوهـرِ بنفسـه.. هـو اسـتغناؤه عـن محـلٍّ يقـوم بـه ، ولا يعنـي اسـتغناؤه عمَّـن يُمِـدُّه بالوجـودِ في كلِّ آن(٢) .

---

(١) « المقصد الأسنىٰ » لحجة الإسلام ص٥٢ .

(٢) وهـذا مـا دعـا كثيـراً مـن المتكلِّميـن إلىٰ رفـض حـدِّ الجوهـر بالقيـام بالنَّفس ؛ فـإنَّ القيـام بالنفس مجموعٌ مـن استغناءٍ عـن محلٍّ مع استغناءٍ عـن مخصصٍّ ، وهـذا ليس إلا لله وحـده ، فإطـلاق القيـام بالنفس علىٰ الجوهـر.. مِن قبيـل المَجاز عندهـم ، وقـد عرَّفـوه =

قـال سـيدي ابـن عطـاء الله السـكندري رضـي الله عنـه :« **نِعمتـانِ مـا خـلا منهمـا موجـودٌ ، ولا بـدَّ لـكلِّ موجـودٍ منهما: نعمـةُ الإيجـاد ، ونعمـةُ الإمـداد** » .

فبالإيجـاد.. أظهـر الأشـياءَ ، وبالإمـداد.. أقامهـا فأمسـك عليهـا وجودهـا ، والعقـل يحكـم بمـا يظهـر لـه مِـن أنَّ الجوهـرَ يقـومُ بنفسـه ؛ عندمـا رآه مُستغنيـاً عـن محـلٍّ يقـوم بـه ؛ ولكنـه لـم ينفُـذ إلىٰ الحقيقـة ليعلـمَ بأنَّ قيـامَ الجوهـرِ بنفْسـه.. إنَّمـا لـه شـرطٌ ؛ وهـو توالـي الإمـداد ، وهـو معنىٰ **القيوميَّـة** كمـا أسـلفنا .

فالأشـياء قائمـة بنفسـها ، وهـي قائمـة بالإيجـاد مـن حيـث النظـرُ الظاهـر ، وهـي هـي قائمـةٌ بالوجـود مـن حيـث النَّظـرُ بالبصائـر ، فـلا خـلاف عندهـم - رضـي الله عنهـم - بيـن قولهـم: قائـم بالإيجـادِ أو قائـم بالوجـود ، إلَّا عنـد مـن لا يـدركُ معنـىٰ هـذا القيـام فيظنُّـه لجهلـه كقيـامِ الأعـراضِ بالجواهـرِ وحُلولِهـا بـه والعيـاذ بـالله !

وقـد أوضـح ذلـك حُجَّـةُ الإسـلام الغزالـي رضـي الله عنـه ؛ فقـال في« المقصـد الأسـنىٰ » :

= بالمتحيـز ؛ ليخرجـوا مـن هـذا الإيهـام . وسـيأتي كلام حجـة الإسـلام عـن هـذا في تفسـيره اسـم الله « القيـوم » .

« **والمُمكـن بذاتـه الواجـبُ بغيره:** هـو حـقٌّ مـن وجـهٍ ، باطـلٌ مـن وجـهٍ ؛ **فهـو مـن حيـث ذاتُـه.. لا وجـودَ لـه ؛ فهـو باطـلٌ** . وهـو مِـن جهـة غيـره.. مسـتفيدٌ للوجـود ، فهـو مـن هـذا الوجـه الـذي يلـي مُفيـدَ الوجـودِ.. موجـودٌ ، فهـو مـن ذلـك الوجـه.. حـقٌّ ، ومـن جهـة نفْسِـه.. باطـلٌ ؛ فلذلـك قـال تعالـىٰ: { كُلُّ شَـيءٍ هالِـكٌ إلَّا وجْهَـهُ } وهـو كذلـك أزلاً وأبـداً ، ليـس ذلـك في حـالٍ دونَ حـالٍ ، لأنَّ كلَّ شـيءٍ سـواه أزلاً وأبـداً مِـن حيـث ذاتُـه.. لا يسـتحقُّ الوجـودَ ، ومِـن جهتِـهِ.. يسـتحقُّ ؛ فهـو باطـلٌ بذاتـه ، حـقٌّ بغيـره ، **وعنـد هـذا تعـرف أنَّ الحـقَّ المطلـقَ ؛ هـو الموجـود الحقيقـي بذاتـه ، الـذي منـه يأخـذُ كلُّ حـقٍّ حقيقتَـه** »[1]

انتهـىٰ كلام حجـة الإسـلام

- بـل زاد بالإيضـاح رضـي الله عنـه فقـال عنـد شـرح اسـم الله« **القيـوم** » :

« اعلم أن الأشياء تنقسم إلىٰ :

مـا يفتقـر إلـىٰ محـلٍّ : كالأعـراض والأوصـاف ، فيقـال فيهـا: إنهـا ليسـت قائمـةً بأنفُسِـها .

---

(١) « المقصـد الأسـنىٰ » لحجـة الإسـلام ص٢٤٧-٢٤٨ . وقـد كـرر حجَّـة الإسـلام هـذا المعنـىٰ مـراراً في العديـد مـن كُتبـه ، وانظـر مثلاً« مشـكاة الأنـوار » ص٤٠ .

وإلىٰ ما لايحتاج إلىٰ محلٍّ: فيقال: إنه قائمٌ بنفْسِه ؛ كالجواهر .

إلا أنَّ الجوهرَ وإن قام بنفسه - مستغنياً عن محلٍّ يقوم به -.. فليس مستغنياً عن أمورٍ لا بدَّ منها لوجوده وتكون شرطاً في وجوده ، **فلا يكونُ قائماً بنفسه ؛ لأنَّه يحتاج في قوامه إلىٰ وجودِ غيره ، وإنْ لم يحتج إلىٰ مَحلٍّ** .

فإن كان في الوجودِ موجودٌ يكفي ذاتَه بذاته ، ولا قوام له بغيره ، ولا يُشترط في دوام وجوده وجودُ غيره.. فهو القائم بنفسه مطلقاً .

فإن كان مع ذلك يقومُ به كلُّ موجودٍ - حتىٰ لا يُتصور للأشياء وجودٌ ولا دوامُ وجودٍ إلَّا به -.. فهو القيُّوم ؛ لأنَّ قِوامُه بذاته ، وقوام كلِّ شيءٍ به ، **وليس ذلك إلا اللهَ سبحانه وتعالىٰ** »[1] انتهىٰ كلام حجة الإسلام .

قلت: فانظر لكلام حجة الإسلام رضي الله عنه ، فمرَّةً قال عن الجوهر: قائمٌ بنفسه ، ثم بعد ذلك قال عنه: فلا يكون قائماً بنفسه !

وهذا ليس تناقضاً ؛ لِما علمتَ مِن أنَّ القولَ الأوَّلَ.. نظرُ العقلِ لظاهرِ الأشياء ، والقولَ الثاني.. نظرُ البصيرةِ لِحقائق الأشياء .

(١) « المقصد الأسنىٰ » لحجة الإسلام ص٢٠٦ .

وقال في إحيائه رضي الله عنه ، متكلِّماً عن توحيد الخواصِّ الذي سماه: نظرَ التوحيد المحضِ :

« وهذا نظرُ مَن عرف أنَّه ليس في الوجودِ غيره ، وأنَّ كلَّ شيءٍ هالكٌ إلَّا وجهه ، وأنَّ ذلك صِدقٌ في كلِّ حالٍ أزلا وأبدا »[1] انتهىٰ

يعني: أنَّ الأشياء عدمٌ محضٌ بالنَّظر إلىٰ ذاتها ؛ أي: ليس لها وجودٌ ، وهذا خلافُ المتبادر للذهن ؛ لأنه نظرٌ بعينِ الحقيقة ، وهي: مطابقةُ هذا الشُّهودِ لنفس الأمر والواقع الحق ، فهو كما قال حجة الإسلام :« **وأنَّ ذلك صِدق** » أي مطابقٌ للواقعِ كما هو .

بل زاد رضي الله عنه ، فقال بشكل أعمق بعد ذلك :

« لأن الغيرَ هو الذي يُتصور أن يكون له بنفسه قوامٌ ، ومثل هذا الغير - إن اعتُبِرَ في ذاته مِن حيث ذاتُه -.. لا وجودَ له ؛ بل هو محال أن يوجَد »

---

(١) « إحياء علوم الدين » تحت قوله: (بيان طريق كشف الغطاء عن الشكر في حق الله تعالىٰ) وقال الحافظ العلامة السيد مرتضىٰ الزبيدي في شرحه« إتحاف السادة » : (وهذا النظر لمن ترقىٰ من حضيض المجاز إلىٰ ذروة الحقيقة واستكمل معراجه فرأىٰ بالمشاهدة العيانية أن ليس في الوجود إلا الله ، وأنَّ كلَّ شيء هالكٌ إلا وجهه ، لا انه يصير هالكاً في وقتٍ من الأوقات ؛ بل هو هالك أزلاً وأبداً ، لا يُتصوَّرُ إلا كذلك) .

قلت: إذن ما لا قوام له بنفسه - أي: غير قائم بنفسه - هو معنىٰ العدم عندهم رضي الله عنهم ؛ بل قال :« **محالٌ أن يوجد** » ، فهو وإن كان بالنظر العقلي قائم بنفسه ، بمعنىٰ استغنائه عن محلٍّ ؛ لكنه بالنظر الحقيقي من حيث البصائر..لا وجود له من حيث هو أصلاً .

ثم تابع حجةُ الإسلام بقوله :

« **ولا قيّوم إلَّا واحدٌ ، ولا يُتصور أن يكون غير ذلك ؛ فإذن: ليس في الوجود غير الحي القيوم** » انتهىٰ

أي : لا شيء يقوم بنفسه بنظر الحقيقة - وإن قامت الأشياء بأنفسها من حيث النظرُ الظاهر - إلَّا واحدٌ ، وهو الحق سبحانه ؛ بل لا يُتصوَّر - بنظر البصائر والحقيقة - إلَّا هذا .

وقد كرر رضي الله عنه هذه المعاني مراراً في كُتُبِهِ ، ولو جمعناها لطال بنا الكلام .

فإذا دقَّقتَ بما سبق وعرفته علىٰ وجهه.. عرفت معنىٰ البقاء ، وهو قيام الخلق بالحق ، أو : الخَلقُ مَظاهر للوجود الحق .

وهذا القيامُ ليس كقيام الأعراض بالجواهر وحلولها به كما فهم

من لا فهم عنده ؛ حتىٰ قال بأن الصوفيَّةَ يجعلون الكونَ أعراضاً قائمةً بعين ذات الله !!

فهذا القائل مع أنه يزعم تنافي الحلول مع وحدة الوجود.. إلَّا أنَّه لم يستطيع إلَّا أن يُثبت ما نفاه ؛ لأنه واقفٌ مع فكره في فهم كلامهم ، وهذا الكلام أجنبيٌّ عما يقوله الصُّوفيَّةُ رضي الله عنهم .

ومن هنا قالوا: لن تفهم معنىٰ هذا القيامَ.. إلَّا بالذَّوق والكشف ، وأما ما دُمتَ تُريد أن تهجمَ بفكرك علىٰ فهم معنىٰ هذا القيام.. فلن تحصل عليه ؛ بل سوف تتَّهمهم بالحلول والاتحاد والعينية ، والعياذ بالله .

ولله درُّ سيدي ابن عجيبة رضي الله عنه ، فقد قال في شرحه لحكم سيدي ابن عطاء الله السكندري قدس سره :

« وقد اتَّفقت علىٰ هذا المعنىٰ - وهو سرُّ الوحدة - مقالاتُ العارفين ، و مواجيدُ المُحبِّين وأشعارُهم ، كلٌّ علىٰ قدر ذوقه وشربه ، جزاهم الله عنَّا وعن المسلمين خيراً ، ولا يَفهم هذه العبارات إلَّا أهلُ الأذواق والإشارات ، وحَسْبُ مَن لم يبلغ لها فهمُه ولم يُحِط بها علمُه.. أنْ يسلِّم ويكِلَ فهمَها إلىٰ أربابها ، وليعتقد كمالَ التَّنزيه وبطلانَ التَّشبيه ؛ لأن هذه المعاني أذواقٌ ، لا تُنال إلَّا بصحبة أهلِ

الأذواق »[1] انتهىٰ .

فالأكـوان إذن هـي مظاهـر للحـق ، لا وجـود لهـا معـه ، ولا نسـبةَ بينهـا وبينه ؛ فالمظاهـر هـي الأَواني التي ظهـرت بالمَعـاني ، أو قل: هـي الأواني التـي أظهـرتِ المعـاني .

فهي مظاهر لهذا الوجود الحق الواحد ، وهي من حيث هي عدمٌ ؛ ولذلـك تعجـب سـيدي ابـنُ عطـاء الله في حِكمِـهِ تَعَجُّـبَ المعرفـةِ لا تعجُّـبَ الجهـل ، فقـال :« **فيـا عجبـًا كيـف يظهـر الوجـود في العـدم ؟ أم كيـف يثبـت الحـادثُ مـع مـن لـه وصـف القِـدم ؟** » فالوجـود الحـقُّ ظاهـرٌ بالمَظاهـر ، وهـي الأكـوان ، وهـي مـن حيـث هـي عـدمٌ .

وسـيأتي مزيـدُ تفصيـلٍ إن شـاء الله تعالـىٰ لـكل مـا ذكرنـاه هنـا عنـدَ وصولنـا للـكلام عـن التَّوحيـد الـذَّاتي الـذي ذكـره سـيدي القطـب الدرديـر رضـي الله عنـه .

ومُسْتَخْبِرٍ عَنْ سِرِّ لَيْلَىٰ رَدَدْتُهُ ** بِعَمْياءَ عَنْ لَيْلَىٰ بِغَيْرِ يَقِيْنِ

يَقُولُونَ : خَبِّرْنا ، فأنتَ أَمينُها ** وَمَا أَنا إِنْ خَبَّرْتُهمْ بأَمِينِ

---

(١) « إيقـاظ الهمـم » عنـد شـرحه لقـول سـيدي ابـن عطـاء :« ممَّـا يدلُّـكَ علىٰ وجـودِ قهره سـبحانه.. أنْ حَجَبَـكَ عنه بِمَـا لَيْسَ بموجـودٍ معـه » .

ثم زادنا الأستاذُ جادُ الله يقيناً بعدم فهمه لمعنىٰ وحدة الوجود ، فقال :

« فانظر هنا كيف أن من جملة النعم التي عددها القطب الدردير أن الله أبرزه من العدم إلىٰ الوجود ، وفيه اعتراف بوجوده ووجود العالم ، وهو تكثير للوجود ، مع تمييز للواجب وتحقيق لوجوبه ، وتمييز للممكن وتحقيق لإمكانه ، وفي هذا مباينة ومناقضة لمذهب وحدة الوجود الفلسفية من نفي الاثنينية في الوجود ، زعماً منهم أن الوجود واحد لا غيرية فيه ولا اثنينية ، ولذلك سماهم من سماهم بأهل الوحدة أو الاتحادية » انتهىٰ كلام جاد الله .

ولنا تعليقات علىٰ كلامه هذا :

- القطب الدردير رضي الله عنه.. عدَّدَ هذه النِّعم علىٰ لسان سيدي محمد وفا قدس سره ؛ لذلك قال :« ولما تحقق هذا الأستاذ الأعظم بهذا المقام.. قام بحق العبودية ذاكراً ، ولآلاء نعم ربه شاكراً ؛ فقال : ... الخ » .

إذن : كلام سيدي الدردير.. شرحٌ لكلام سيدي محمد وفا الذي تحقَّق بوحدة الوجود ، والتي زعمَ الأستاذ جاد الله أن معناها هنا وحدة شهود! وماعادت هذه المُغالطات تنطلي علىٰ القارئ بعدما

أوضحنا ما أوضحناه في كلامنا السابق ؛ إذ :

- كيف يُعَدِّدُ النِّعمَ وأنت تدَّعي أنها وحدة شهود؟! فوحدة الشهود.. طَمْسٌ عن شهودِ ما سوىٰ الله ؟! فهذا تناقضٌ منكَ ، و هو ينقض دعواك .
- كيف يُعَدِّدُ الوجودَ ويكثِّرُه مَن حالُهُ وحدة الشهود ؟! هذا نقضٌ آخر لزعمك !
- وكيف يميِّز الواجبَ مِنَ الممكن مَن حالُه وحدة الشهود ؟! هذا نقض آخر أيضًا لوهمك .

ثم جاء الأستاذ بالطَّامة حتىٰ يُعرِّفَنا معنىٰ وحدة الوجود ، فقال :

« وفي هذا مباينةٌ ومناقضة لمذهب وحدة الوجود الفلسفية من نفي الاثنينية في الوجود ، زعما منهم أن الوجود واحد لا غيرية فيه ولا اثنينية ، ولذلك سماهم من سماهم بأهل الوحدة أو الاتحادية » انتهىٰ كلام الأستاذ .

ما يعنيه كلام الأستاذ جاد : بما أنَّ الشيخ قد عدَّدَ النِّعم ، ومَيَّزَ الحادثَ مِن معنىٰ القِدم.. فقد خرج عن معارف أهلِ وحدة الوجود !!

فالأستاذ جاد يخلط ولا يميِّز بين وحدة الوجود وكثرة الموجود ، فإن السَّادة العارفين يقولون بوحدة الوجود لا وحدة المَوجود ، فهو يخلط بينهما ، **ويصبُّ زُلالَ الأُولىٰ بآسِنِ الأُخرىٰ** ؛ إذ بعد أن قابل الأستاذُ جادُ الله تَعدُّدَ النِّعم وتكثُّرَها بوحدة الوجودِ.. فلا يبقىٰ من كلامٍ يقال إلَّا ما قُلناه ؛ من أنَّ الأستاذ - للأسف - لا يميِّزُ بين وحدة الوجود و وحدة الموجود ؛ بل وما استطاع تخليصَ مفهومَ وحدة الشهود كما رأينا .

ولطالما رأينا الأستاذ في مناقشاته - كما شهدنا ذلك منه مراراً - إذا أتيناه بقول إمامٍ معظَّمٍ عندَ أهل السنَّةِ يقول بوحدة الوجود.. تجده يستدلُّ علىٰ بطلان ما نفهمه من صريح قول هذا الإمام ، ويؤوِّل كلامه علىٰ أنَّه يُريدُ وحدةَ الشُّهود مادام ذلك الإمام المنقول عنه الكلام.. يقول بالمُمكنات ، والخَلق ، وتكثُّرِ الأشياءِ ، وكأنَّ أهلَ وحدةِ الوجودِ لا يقولون بها !

وهذا من رقَّة البحث وضعفِ الفَهم للمسألة ، وأخذِها علىٰ عاتق ما يتبادر لذهنه مع الأسف الشديد .

ونعطي القارئَ الكريمَ بعضَ الأمثلة ؛ ليتأكد مِن سطحيَّة هذا الفهم :

فلو فرضنا أننا قلنا للأستاذ جاد الله : إن سيدي القطب الدردير رضي الله عنه يقول بوحدة الوجود ، والدليل هو قوله :

كـن عارفـًا بوحـدةِ الوجـودِ
وقاطعـًا بكثـرةِ الموجـودِ
ومَيِّـز الحـادِثَ مِـنْ قديـمٍ
وخلِّـصِ الثَّابـتَ مِـنْ مَفقـودِ

لكان جواب الأستاذ : لا ؛ بل هذه وحدةُ شهود.

وسيكون الدليل عند الأستاذ حينها : أنَّ الشيخَ في هذه القصيدة.. يميِّز بين الحادث والقديم ، ويقول بالكثرة التي تنافي معنىٰ وحدة الوجود.

هذا هو الفهم السَّطحي كما ترون ، بينما لو أعدنا نسبةَ هذه الأبيات لقائلها الحقيقي ، وهو سيدي عبد الغني النابلسي رضي الله عنه ، فماذا سيكون جواب الأستاذ ؟

نعم ، هي بالفعل لسيدي عبد الغني النابلسي قدس سره ورضي عنه .

ولو أردنا – أيضا – أن نستدلَّ بهذا الفهم السَّطحي الكليل كما

يستدل الأستاذ جاد الله بسام.. لقلنا مثلا :

قال الشيخ الأكبر رضي الله عنه في الباب(٣٩٧) من « الفتوحات » :
« اجتمعَتْ روحي بسيدنا هارون عليه السلام ، في بعض الوقائع ، فقلت له : يا نبي الله ، كيف قلتَ : {فلا تُشمت بي الأعداء} ، ومَنِ الأعداء حتىٰ تشهدَهم ، والواحد مِنَّا يصِلُ إلىٰ مقامٍ.. لا يَشهدُ فيه إلا الله تبارك وتعالىٰ ؟!

فقال لي السيدُ هارون عليه السلام : صحيحٌ ما قلتَ في مشهدكم ؛ ولكن إذا لم يشهد أحدُكم إلا الله.. فهل زالَ العالَمُ في نفس الأمر كما هو مَشهدُكم ، أم العالَمُ باقٍ لم يزل وحُجِبتم أنتم عن شهوده لِعظيم ما تجلَّىٰ لقلوبكم ؟

فقلت له : **العالَمُ باقٍ في نفس الأمر** ، **وإنما حُجِبنا عن شهودِهِ** .

فقال : قد نقَصَ علمُكم بالله.. بقدر ما نقصَ من شهودكم العالَمَ ؛ فإنه كُلُّه آياتُ الله تعالىٰ .

فأفادني عليه السلام عِلماً لم يكن عندي » انتهىٰ النَّقل عن الشيخ الأكبر .

إذن : مـا رأيـكَ يـا أسـتاذ جـاد الله بسـام ، هـل تقـرِّون بـأنَّ الشـيخَ الأكـبر يقـول بوحـدة الشـهود لا بوحـدة الوجـود ؟

هـذا مـن نفـس اسـتدلالاتكم السَّـاذجة ، فهـو يقـرُّ بوجـود الأشـياء ؛ وإنَّمـا غـابَ عنهـا في شـهوده ؛ لعِظَـمِ مـا بدهَـهُ في قلبـه ، وليـس عـن مُطابقـة الواقـع !!

لكنَّـا نقـول : بـل حتَّـىٰ هـذه وحـدةُ وجـودٍ ، وإنَّمـا يـدرك مَشـربَها الهَنـيَّ العلـيَّ الرَّفيـعَ.. أهلُهـا ، وقـد كشـفنا سـابقًا عـن هـذا المعنـىٰ بإجمـال .

ورضـي الله عمَّـن قـال مِـن الكمَّـل ، وهـو سـيدي المجـذوب ، مِـن مشـايخ شـيوخ سـيدي ابـن عجيبـة رضـي الله عنهـم :« الخلقُ نـوَّار وأنـا رعيـت فيهـم ... هـم الحُجـب الأكـبر والمَدخـل فيهـم » فافهـم .

أو مـا رأيـكَ أن نقـول لـك : إنَّ قـول سـيدي العـارف عبـد الكريـم الجيلـي.. يـدلُّ علـىٰ وحـدة الشـهود ؟! وهـو :

تجلَّيـتَ في الأشـياء حيـن خلقتَهـا
فهـا هـي مِيْطَـتْ عنـكَ فيهـا البراقـعُ

فها هـو رضـي الله عنـه.. يُثبـتُ الأشـياءَ ، ويُثبـت خلْقَهـا ، فعلـىٰ حسـب اسـتدلالاتكَ السـاذجة فهـو إذن.. قائـلٌ بوحـدة الشـهود لا وحـدة الوجـود !!

ولـو أردنـا أن نسـوق لـك مئات النُّصـوص علىٰ وفـق هـذا المنحىٰ لفعلنـا ، ولكنـا نعتقـد بـأن هـذه الأمثلـة القليلـة.. أظهـرت ضعفـك واضطرابـك ، وأظهـرت عـدمَ معرفتـك بوحـدة الشـهود ، فضـلاً عـن وحـدة الوجـود !

وأحـب أن أضـع لكـم كلامـاً للأسـتاذ جـاد الله بسـام ، ثـم تنظـروه بأنفسـكم لتعلمـوا كـم هـو في حيـرة واضطـراب !

وهو قوله بعد ما سلف :

« ولا يغيـب علـىٰ ذوي الحـزم وأولـي الألبـاب ، وكل ناظـر إلـىٰ يـوم الحسـاب ، أن الأئمـة الكـبراء ليسـوا بمعصوميـن مـن الخطـأ ، وأن حسـن ظننـا بهـم لا يغنيهـم مـن الله شـيئا ، ولا يغنينـا نحـن أيضـاً مـن الله شـيئا إن زللنـا في مهـاوي الضـلال بسـبب قلـة الفهـم عنهـم ، أو اتبـاع غيـر معصـوم مـن الكـبراء الحاذقيـن منهـم ، ونحـن وإن كنـا نطمئـن النـاس عندمـا نكشـف عـدم ضـلال الكبـار والعارفيـن بموافقـة مذهـب وحـدة الوجـود الفلسـفي ، إلا أننـا ننبـه أننـا لا نسـتضر بضـلال

مـن يضـل ، كائنـا مـن كان ذكـره في مراتـب وكتـب طبقـات المتصوفـة ، التـي ليسـت هـي قطعـة أم الكتـاب ولا لـوح الغيـب المحفـوظ ، وقـد قـال الله تعالـىٰ في تثبيـت ذلـك : { يـا أيهـا الذيـن آمنـوا عليكـم أنفسـكم لا يضركـم مـن ضـل إذا اهتديتـم إلـىٰ الله مرجعكـم جميعـا فينبئكـم بمـا كنتـم تعملـون } » انتهـىٰ كلام جـاد الله بسـام .

و ندعكـم لتعلمـوا بأنفسـكم مـا هـو الداعـي لقـول مثـل هـذا الـكلام المهلهـل المضطـرب ؟!

ثـم تابعَ الأسـتاذُ جـاد الله في تفسـير المراتـب الثـلاث التوحيديـة التـي ذكرهـا القطـب الدرديـر رضـي الله عنـه ، وهـي وحـدة الأفعـال ، ثـم وحـدة الأسـماء والصفـات ، ثـم وحـدة الـذات .

والـذي يهمنـا هـو وحـدة الـذات التـي هي(وحـدة الوجـود) كمـا ذكـره القطـب الدرديـر رضـي الله عنـه ، ونتجـاوز عـن أغاليـطَ كثيـرةٍ ذكرهـا الأسـتاذ جـاد الله بسـام في المَرتبتَيـن السَّـابِقتَين ، وهـي وحـدة الأفعـال ، ثـم وحـدة الأسـماء والصفـات ؛ وإن كنَّـا سنشـير إلـىٰ أهـم الأغاليـط فيهـا ونتجـاوز عـن البقيـة منهـا لنقتصـر في الـكلام علـىٰ الأهـم فالأهـم ، بـإذن الله.

***

المرتبة الأولىٰ :

توحيد الأفعال :

قال القطب الدردير رضي الله عنه : « وهو أوَّلُ مراتب الفتح علىٰ السالكين ، يرىٰ ببصيرته وذوقه أن لا فِعْل لغير الحق تعالىٰ ، وأنَّ كل ما صدر في الوجود.. فإنما هو بقدرة الله تعالىٰ ، يشهد ذلك بالذَّوق لا بالدليل ، وهو مقامٌ يُخاف علىٰ السالك فيه أن يقع منه إلحادٌ أو قولٌ بالاتحاد ، أو عدم تفريق بين حلال أو حرام ، فهمَّتُهُ وهمَّةُ شيخه.. ترقِّيه إلىٰ مرتبة توحيد الأسماء والصفات »[1] انتهىٰ كلام القطب الدردير رضي الله عنه .

نستفيد من كلام سيدي الدردير مايلي :

- مرتبة توحيد الأفعال.. أوَّلُ مراتب الفتح علىٰ السَّالك ، وليست النهاية ولا الغاية كما يُوهم كلامُ الغرباء عن هذا العلم .
- الشهود لعين البصيرة ، لا لعين البصر ، ولا لما يتبادر إلىٰ الذهن منَ الفكر !!

(١) « مشكاة الأسرار » ص٩ .

- هـذا الشـهـود.. ليس بالأدلـة العقلية ، وإنما بالـذَّوق المحض .

- يُخشىٰ علىٰ السالك فيـه ؛ لأنـه لا يُشاهد إلا فعلَ الواحـد تعالىٰ ، فقد يؤديه ذلك إلىٰ التَّحلل منَ التكاليف ، ضرورة أن الله هـو الفاعـل وحـده ولا تكليف عليه جل وعـز ، وهـذا ربمـا يـؤدي بـه للقـول بالاتحـاد – والعيـاذ بـالله – مـن حيـث شـهوده أنَّ فعلَـهُ عيـنُ فعـل الحـق سبحانه ، مـع نقصـه مـن حيـث عـدمُ فنـاءِ هـذا السـالك في الصِّفـات والـذَّات ، ومـن ثَـمَّ يؤديـه لعـدم التَّمييـز بيـن الحـلال والحـرام ؛ لأنـه يشـاهد الفعـلَ لله وحـده ، والـكل مُلـك الله فـلا حـلال وحـرام ؛ إذ لا حجـر علـىٰ فعـل الله !

- العـلاج مـن هـذه المُنزلقـات السـابقة.. هـو همَّـةُ المريـد مـع هِمَّـة الشـيخ المربِّـي .

فهِمَّـة المريـد : كلَّمـا وقـفَ علـىٰ شـهودٍ أو معرفـةٍ.. تُناديـه الحقائـقُ بِعَـدَمِ الوقـوف ، كمـا ذكـر سـيدي ابـن عطـاء الله السـكندري فقـال : « مـا أرادت هِمَّـةُ سـالكٍ أن تقـفَ عندمـا كُشِـف لهـا.. إلا ونادتـه هواتـف الحقيقـة : الـذي تطلـب أمامـك . ولا تبرَّجـت لـه ظواهـرُ المكوَّنـات.. إلَّا ونادتـه حقائقهـا : { إِنَّمَـا نَحْـنُ فِتْنَـةٌ فَـلَا تَكْفُـرْ } » .

وكما قال سيدي الشُّشْتري رضي الله عنه :

ومهما ترىٰ كل المراتب تُجتلىٰ
عليكَ فحُل عنها فعن مثلها حُلنا
وكلُّ مقامٍ لا تَقُمْ فيه إنَّهُ
حِجابٌ فجِدَّ السَّيرَ واستنجِدِ العَونا

أمَّا هِمَّة الشيخ : فمعلومٌ عند أرباب السُّلوكِ كيفية دفعها ورفعها ونفعها ، ولا نطيل بتفاصيل معانيها .

فظاهرٌ إذن ؛ بأنَّ الإمام الدردير رضي الله عنه.. يتكلم عن شهودِ بصيرةٍ مطابقٍ للواقع الحقِّ ، **وإلَّا لو كان غير مطابق للواقع.. فسيؤدي بنا هذا للكفر قطعًا ؛** لأننا سنقول حينها بأن الله.. ليس فاعلاً حقيقةً إلَّا في شهود السالك ، وفي الكيفيات النَّفسانية له - كما يصفها الأستاذ جاد الله - ، وأنَّ ما صدر بقدرته تعالىٰ.. ليس إلا في شهود العبد لا في الواقع... الخ ، والعياذ بالله !

فانظروا ما يقوله الأستاذ جاد الله بسام ؛ لعدم إدراكه معنىٰ الشهود :

« وينبغي أن يلاحظ معنا القارئ أن هذه المراتب الثلاثة إنما

هـي مراتـب في سـلوك السـالك في طريـق أهـل الله ، وليسـت عقائـد يعتقدها ، أو علومـًا وأحكامـًا يحكـم بها ، بـل هـي كيفيـات نفسـانية وهيئـات قلبيـة تحصـل للعبـد نتيجـة التقـرب إلـىٰ الله تعالـىٰ بالنوافـل والمجاهـدات وكثـرة الذكـر والفكـر ، ومـا يكتسـبه مـن الكمـالات التابعـة لتلـك الهيئـات الحاصلـة لـه » انتهـىٰ كلام الأسـتاذ جـاد .

فهـا أنـت تجـد كلامـه مُضطربـًا أشـدَّ الاضطـراب ؛ إذ كيـف تكـون مراتـب سـلوكيَّة ولا تكـون علومـًا ؟!

وهل معنىٰ القرب من الله.. إلّا زيادة العلم بالله ؟!

ومـا هـي الكيفيـات النَّفسـانية والهيئـات القلبيَّـة.. إن لـم تكـن عِلمـًا ومعرفـةً بـالله أدَّت بالسَّـالك للقـرب منـه سـبحانه في هـذه المراتـب السُّـلوكية ؟!

ثـم كيـف لا يكـون العلـم بـأنَّ الله هـو الفاعـل مطلقـًا.. عقيـدةً أو علمـًا ؟!

نحـن نعلـم مـن أيـن جـاءت كلُّ هـذه التَّخبطـات مـن الأسـتاذ ، وهـو مـع ذلـك لا يتصـور معنـىٰ الشُّـهود كمـا قلنـا .

ثم قال الأستاذ متابِعاً :

« فالمراتب الثلاثة الآتية للتوحيد مضبوطة بما سبق ذكره ، فلم يبق لها محل في الواقع والأحكام المتعلقة بنفس الأمر ، بل محلها شهود المكلف ووجدانه وانفعاله ، فمن ثم تثبت أحكام هذه المراتب وكمالاتها العلية في شهوده ذاك ووجدانه وانفعاله » انتهىٰ كلام الأستاذ جاد .

أقول: فهو لا يعرف كما قلنا من قبل معنىٰ الواقع عند السَّادة الصُّوفية ، ولا معنىٰ الشُّهود ومُطابقته لهذا الواقع ، **وليته فرَّق بين الحكم بمقتضىٰ أحكام الشهود ، وبين مطابقة حكم الشُّهود للواقع** ، **وهذا الفرق دقيق جداً** ؛ فإن الحكم بمقتضىٰ أحكام الشهود.. زندقة ، ومطابقة حكم الشُّهود للواقع.. هو سيرةُ السَّالك الموفَّقة . ولا نزيد علىٰ ما ههنا .

فقِس أيها القارئ الكريم علىٰ هذا المثال ؛ لكي تعلم الفرق بين الحقيقة والشريعة في منازل التوحيد الثلاث ، أعني مثال توحيد الأفعال ، وهو ما يناسب فهم الجميع ؛ فإنك لا ترىٰ بعينك إلَّا فعلَ الخَلق وتنسبه لهم ، وبذلك صحَّ التَّكليف ؛ ولكنك مأمورٌ باعتقاد أنَّ اللهَ هو الخالق والفاعل في الحقيقة هو لا غير ، فالحقيقةُ

تُبايِن الشَّريعةَ عند العامة أهلِ الحِجاب مِن هذه الحيثيَّة ؛ أمَّا لو كشف اللهُ عن عين البصيرة.. لانطبق الفرعُ على الأصل ، ولَما رأيتَ إلَّا الله وحده فاعلاً كما كنتَ تؤمن ؛ بل أوضَح ، **عندها تعلم بأن الشَّريعةَ.. عينُ الحقيقة** .

ثم تابع الأستاذُ جاد الله بسام بقوله :

« والمراد به شهود قلب السالك ما حقَّقته الأدلَّة العقلية مِن أنَّ الفاعل في الوجود هو الله جل في علاه... » انتهىٰ كلام الأستاذ .

قلت :

إنَّ العارفَ الدردير لم يذكر هنا الأدلةَ العقلية ! وأي مكانٍ للدليل العقلي أمام هذه المراتب الشهودية ؟!

ما حقَّقَتْهُ الأدلةُ العقلية.. لا يُعتبر شيئًا أمام ما تُشاهده القلوبُ النَّقيَّة ؛ لأن ما حقَّقته الأدلةُ مهما قويَ.. لن يبلغ يقينَ مَن يُشاهد ؛ إذ: ليس مَن رأىٰ كمَن سَمِعَ . وقال سيدي ابن عطاء الله السكندري رضي الله عنه : « **شتَّان بين من يستدلُّ به ويستدلُّ عليه** »

فهؤلاء رضي الله عنهم استدلوا بنور الله وبشهودهم هذا.. على

صحة ما كانوا يؤمنون به مِنَ الدليل ، وليس العكس(وإن كان لهذا الكلام منحىٰ آخر ليس هنا محل بحثِه) .

وأيضًا :

فإنه لا محل لكلامك هنا يا أستاذ جاد الله ، وهو قولك :

« تفتقر هذه المرتبة إلىٰ شيئين : المعرفة النظرية الناشئة عن الدليل الفكري ، ثم شهود تلك المعرفة واقعة في حياة السالك ، بكثرة الذكر والتجربة وما يلقيه الشيخ علىٰ السالك من معالم الحق في مسالكه ، فالمتصوف الذي يحقر النظر الفكري والدليل العقلي إنما يحقر نفسه من حيث لا شعور له ، ثم يحرم نفسه ذلك الشهود بحكم العادة ، ثم يعرض نفسه لمهلكة لا يدري » انتهىٰ كلام الأستاذ .

لأن كلامك هذا الذي لم يقله العارف الدردير هنا.. يؤدِّي إلىٰ تكذيب العارفين من الأُمِّيِّينَ وأمثالِهم الذين لم يفتقروا إلىٰ الدَّليل العقلي ، وما خطر لهم علىٰ بالٍ أصلاً ، وأنت تشترطه لحصول هذه المَرتبة ، ولا حصولَ للمَشروط بغير الشَّرط !

فدع عنك هذه الزِّيادات ، ولا تُقوِّلِ الإمامَ مالَمْ يقُلْهُ هنا ، حتىٰ

قلتَ من كِيسكَ :

« وطريق الأمان فيها أولاً بالمعرفة النظرية المشروطة سابقًا ، ثم بهمة التَّمييز التي تكون من السالك ، أو إرشاد المربي ، أو بهمتهما معا » انتهىٰ

فنحن نرىٰ القطب الدردير قد قال : « **يشهد ذلك بالذوق لا بالدليل** »

ثم أعطىٰ مدلول الأمان بقوله رضي الله عنه :

« فهمّته وهمة شيخه ترقِّيه » فقط ، ولم يزِدْ شروطًا أخرىٰ كما أخرجتَها من عندك واستنطقتَ بها ما في نفسك فقط ، وهذا تحريف صريح لعبارة الإمام .

ثم إنَّ الدَّليلَ العقليَّ مهما قويَ.. فإنَّه لا يُغني عن الذَّوق القلبي ، وقولنا هذا مِن أوضح الأمور لدينا كما هو من أشكلِها لديكم ، وإليك ما قاله سيدي أبو القاسم القُشيري رضي الله عنه :

« والنَّاس : إمَّا أصحاب النقل والأثر ، وإما أرباب العقل والفِكر .

وشيوخ هذه الطائفة [الصوفية] ارتقوا عن هذه الجملة »[1] انتهىٰ

بل نزيدك مِن كلامه رضي الله عنه ، قوله :

« القلبُ إذا حصل له العلمُ من طريق الحواسِّ الخمس الظاهرة.. لا يخلو عن كُدرةٍ وشكٍّ وشُبهةٍ ، بخلاف ما إذا ظهر من صميم القَلب بطريق الفيض ؛ فإنه أصفىٰ وأولىٰ »[2].

وقال الشَّيخُ زينُ الدين الحافي رحمه الله :« والعجب ممَّن دخل في هذه الطَّريقة ، وأراد أن يصل إلىٰ الحقيقة ، وقد حصَّلَ مِن الاصطلاحات ما يستخرج بها المعاني من كتاب الله وأحاديث رسوله صلىٰ الله عليه وسلم ، ثم لا يشتغل بذكر الله ، وبمراقبته ، والإعراضِ عما سواه ؛ لِتنصَبَّ إلىٰ قلبه العلومُ اللدنِّيَّة التي لو عاش ألفَ سنة في تدريس الاصطلاحات و تصنيفها.. لا يشمُّ منها رائحةً ، ولا يشاهدُ من آثارها وأنوارها لمعةً » انتهىٰ[3] .

---

(١) « الرسالة القشيريَّة » تحت باب المعرفة بالله .

(٢) تفسير« روح البيان » (١/ ١٦) .

(٣) المرجع السابق .

وأنـتَ تريـد أن تُدخِـل العقـلَ والفكـرَ في شـؤون الـذَّوق ، فتحكـم بالأدنـىٰ علـىٰ الأعلـىٰ ، وشـتَّان بينهمـا شـتَّان !

وهـذا ليس تحقيـراً للعقـل ؛ **لكـن مَـن عَلِـمَ الرُّتَـب.. وقـفَ عنـد حـدِّه بـالأدب .**

أمَّـا مـن تعـدَّىٰ طـورَه وخـاض بمـا ليـس مـن شـأنه.. وقـع في المُغالطـات وغـرق في الأوهـام ، وهـو يحسـب أنـه يحسـن صُنعـا .

***

المرتبة الثانية :

توحيد الصفات :

قال الأستاذُ جاد الله بسام :

« ومعنىٰ التَّوحيد في هذه المرتبة نفي اتصاف شيء من المخلوقات بشيء من الصفات ، باعتبارها عرضية للمخلوقات وطارئة عليها ، ومن ثم صار العبد السالك الشاهد يرىٰ كل قواه ومداركه وآلاته وجوارحه كأنها مستغرقة في صفات الله تعالىٰ ، بحيث تغلب صفات المولىٰ سبحانه علىٰ صفات العبد ، فيصير العبد متصفا بصفات الله ، ومن شواهد ذلك أن سره يبين عن أسرار الأغيار ، وقلبه يخرق جدر الأسوار ، فيطالع من عجائب الملك والملكوت ما لا يقدر علىٰ إدراكه سواه من الموحدين ، ومن الظاهر أن ذلك راجع إلىٰ إطلاع الله تعالىٰ عبده علىٰ ما يرضاه ، ولا محال في ذلك من جهة العقل أو الشرع أو العادة الجارية عند أهل الله من القاصدين هداه » انتهىٰ كلام الأستاذ . **وفيه** :

- صفات المخلوقات.. منتفية ؛ لأنَّها صفاتٌ عرضيَّةٌ طارئةٌ في هذه المرتبة.
- استغراقُ ظاهرِ العبدِ وباطنِه (كل قواه ومداركه وآلاته

وجوارحـه) في صفـات الله ، أو كأنَّهـا مسـتغرقة في صفـات الله(كمـا عبَّـر الأسـتاذ) .

- معنـىٰ هـذا الاسـتغراق: هو غلبـةُ صفـات الله علـىٰ صفـات السَّـالك بهـذه المرتبـة .
- فيصير العبد.. متصفـًا بصفات الله !!
- شـواهدُ تحقُّقِـهِ بهـذه المرتبـة : أنَّ العبـدَ يُبايـن الخلـقَ بسـرِّه ، ويخـترق الظاهـرَ مِـن الحِـسِّ إلـىٰ باطـن المعنـىٰ ، وقـد عبَّـر الأستاذُ عـن هـذا بعبارتـه المتكلَّفـة جـداً والتـي أرادَ أن يزوِّقَها علـىٰ طريقـة أهـلِ الصَّفـاء ، وهيهـات ، وذلـك قولـه : (ومـن شـواهد ذلـك أن سـره يبيـن عـن أسـرار الأغيـار ، وقلبـه يخرق جـدر الأسـوار) .
- اطّـلاع السَّـالك في هـذه المرتبـة التوحيدية - بعـد مـا ذُكـر - علـىٰ عجائـب عالـم الشـهادة وعالـم الغيـب ، ولا يـدرك أحـدٌ ذلـك سـواه مِـن الموحِّديـن الذيـن لـم يدركـوا هـذه المرتبـة .
- ماسـبق ممـا يحصـل للسَّـالك في هـذه المرتبـة.. إنَّمـا يرجـع إلـىٰ إطـلاع الله لـه علـىٰ مـا يرضـىٰ بـه سـبحانه !
- (ولا محـال في ذلـك مـن جهـة العقـل أو الشـرع أو العـادة الجاريـة عنـد أهـل الله مـن القاصديـن هـداه) كمـا عبَّـر الأسـتاذ .

هـذه النقـاط كمـا تـرون هـي حاصـل مـا في عبـارة الأسـتاذ التـي سـاقها ليشـرح كلام سـيدي القطـب الدرديـر رضـي الله عنـه !

فكمـا تـرون كلامَـه أمامكـم.. فهـو متناقـضٌ ومتكلَّـفٌ ركيـكٌ ، ولا مُحصِّـلَ منـه أصـلاً ، وكأنـه يشـرح ليقـول بأنـه قـد شـرحَ ، وإذا جئـت إلـىٰ معـاني مـا شـرحَهُ الأسـتاذ .. لا تجـد غيـر السَّـراب !

فبعـد جعلِـهِ الصفـاتِ منتفيـةً طارئـةً.. عـادَ فأثبتهـا ، وجعـل المعنـىٰ الجديـد : بـأن صفـات العبـد - التـي كانـت منتفيـةً قبـل قليـل - قـد ضعُفَـت ؛ لاسـتغراقها بصفـات الحـق ، ثـم شـرح معنـىٰ هـذا الاسـتغراق.. بمعنـىٰ غلبـة صفـات الله علـىٰ صفـات العبـد .

وهنا نقف هنيهةً فنسأل الأستاذ :

هل صفاته تعالىٰ لم تغلِب من قبلُ فغلبت الآن ؟

فـإن قلـتَ : غلبـت مـن حيـث شـهود العبـد ، فـإنَّ العبـدَ كان غافـلاً عـن غَلَبَتِهـا ، ولكنـه عندمـا اسـتغرق بالشـهود.. شـاهد غلبـةَ صفـات الله .

قلنا : هل شهوده هذا مطابقٌ للواقع أم لا ؟

إن قلتَ : مطابقٌ.. فقد مِلتَ لوحدة الوجود التي أنت ترفضها !

وإن قلتَ : غيرُ مطابقٍ .. فقد جعلت صفات الله هي الطارئة ؛ لأنها لم تكن هكذا.. ثم كانت بعد شهود العبد ، ثم أبقيتَ الغلَبةَ لصفات العبد في الواقع !!

وهذا كما ترىٰ دهليزٌ خطير ، عليك أن تصحِّح فيه نظرك قبل فوات الأوان ، وليس إلا بالسُّلوك عند وارث محقِّقٍ ، أحببنا أن نلفتَ نظركَ لخطر كلامك هذا ؛ لِما له مِن مناسبةٍ في إدراك معنىٰ كلام القطب الدردير كما سيأتي شرحنا له بعد قليل إن شاء الله .

نتابع شرح كلام الأستاذ :

فهو بعدما تعثَّر في شرح كلام القطب الدردير قدس الله روحه.. وقع في ورطة أخرىٰ ، فقال : (**فيصير العبد متَّصفاً بصفات الله !**) .

ونحن لو أجرينا عليه قاعدة: (لا تأويل إلَّا لمعصوم).. لآخذناه علىٰ هذه العبارة ، والعياذ بالله ، لكننا نعذُره لضيق المقام ، فهو لم يعرف كيف يُعبِّر – لخوضه فيما لا يعنيه – فانزلق بتكلُّفاته لهذا المنزلق الخطير ، عفا الله عنه .

ثـم بعـد ذلـك ذكـر الأسـتاذُ بـأن السَّـالك يطالـع عجائـب المُلـك والملكـوت ، ونحـن نقـول لـه :

ماهي عجائب الملك والملكوت ؟

إن كانـت علومـًا كونيّـةً.. فهـل الولـيُّ يحتاجهـا في قربـه مِـن الله ، ومـن المعلـوم أنَّ الصوفيَّـة يذمُّـون المتعلِّـقَ بهـا ؟

وإن كانـت علومـًا عِرفانيَّـةً (معرفـة الله في الـذات والصفـات والأفعـال).. فهـي التـي نقـول ، وأنـت تنفيهـا في هـذه المراتـب !

و الآن دعونـا نـرىٰ كلامَ القطـب الدرديـر رضـي الله عنـه ، الـذي تعثَّـر بـه الأخُ جـاد الله بسـام .

قال القطب الدردير عن توحيد الصفات :

« وذلـك لأنَّ العبـدَ إذا تحقَّـق بحقيقـةِ الفقـر - بتبرِّيـه الذَّوقـيِّ الشُّـهوديِّ مِـن الحـول والقـوة -.. يصيـر قلبُـه قبلـةً لتجلِّـي الصِّفـات ؛ بحيـث يصيـر هـذا القلـبُ النَّقـيُّ.. مـرآةً للتَّجلـي الوَحـداني الصِّفاتـي الشَّـاملِ حكمُـه لجميـع القُـوىٰ والمـدارك ، فيـدرك حينئـذٍ سـرَّ قولـه عليـه الصَّـلاة والسَّـلام فيمـا يرويـه عـن ربـه : « كُنْـتُ سَـمْعَهُ الَّـذِي

يَسْمَعُ بِهِ ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطُشُ بِهَا ، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا... » الحديث ، فيتبيَّن له : **أن ما كان مضافًا إليه من قبل ذلك مِن سمعٍ وبصرٍ وقوةٍ وإدراكٍ في حالةِ حجابه.. إنَّما كان كلُّه منسوبًا ومضافًا إلىٰ عين هذا التَّجلِّي من حيث ظهورُه في تنزُّله إلىٰ أنزل المَراتب ، وأنَّ إضافتها إلىٰ الخليقَةِ.. إنَّما ذلك من باب المَجاز لا الحقيقة** » انتهىٰ كلام القطب الدردير رضي الله عنه

وهو كلام - والله - أسكرني معناه ، وقوَّمني مبناه ، وهيَّمني بعطر شذاه ، وليعلم الأستاذ جاد والقارئ أيضًا أنَّ القطب الدردير قد أخذ هذا الكلام من كتاب العارف عبد الرزاق القاشاني رضي الله عنه« لطائف الإعلام »[1] ، وقد علمت بذلك بعدما كتبتُ هذا الردَّ بعامَين ، وهذا أوضح بيان بأنَّ القطب الدردير إنَّما يُفيض بعلومه من علوم أهل وحدة الوجود بلا ريب ، ، فرضي الله عنه وأرضاه .

وتفصيل هذه المرتبة كما جاءت :

- **العبد إذا تحقَّق بحقيقة فقره الذَّاتي لله.. يصبح قلبُه مرآةً**

---

(١) انظر حرف« التاء » في« التجلي الصفاتي » ص١٢١، والشيخ القاشاني من شُرَّاح« فصوص الحكم » للشيخ الأكبر .

ينعكس بها تجلي حقيقة وحدة الصِّفات الإلهية ، **ونقول** : إذا كان القلبُ مرآةً تنعكس هذه الحقيقة فيه وتنطبع به.. فهو يشاهد الحقيقة كما هي .

- هذا التَّجلي شاملٌ بحيث يشمل« **جميع القوىٰ والمدارك** » فينكشف له حقيقة حديث رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم الذي يرويه عن ربِّه :« **كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطُشُ بِهَا ، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا** » الحديث .
- فينكشف للعبد بأنَّ ما كان يُضيفه ويَنسبه لنفسه – أيام حِجابه وغَفلته عن شهود الحقيقة – مِن سمعٍ وبصرٍ وقوىٰ ومداركَ.. إنَّما هو في الحقيقة منسوبٌ إلىٰ عين هذا التَّجلي الصِّفاتي الوحداني ، بمعنىٰ : **أن العبد لا وصف له علىٰ الحقيقة ؛ وإنَّما الوصف والحول والقوة لله وحده** ؛ ولكن العبد ينسبها ويضيفها لنفسه.. بسبب غفلته عن هذه الحقيقة ؛ لأنَّه لم ينكشف له التوحيد الصفاتي الشَّامل ، وهذا ما يسميه السَّادة رضي الله عنهم بـ« ظهورِ الحق بحسب استعداد المُمكنات » وشرح هذا يطول ، وليس هنا محله .
- إضافة هذه الصِّفات إلىٰ عين هذا التَّجلي.. ليس إلَّا من حيث ظهورُه تعالىٰ وتنزُّله في أنزل المراتب الوجوديَّة

الخَلقيَّة – وهو : الإنسان – لا من حيث ذاتُه جل وعز ، وفي هذا إثباتٌ من سيدي الدردير قدس سره لما يسمىٰ بـ« مراتب الوجود » ، فيُكشف للعبد بأنه(هو) من حيث هذا الظهور ؛ كما قال سيدي أرسلان الدِّمشقي قدس سره :« **كلَّما أخلصتَ.. يكشف لك أنه هو لا أنت ، فتستغفرُ منكَ...** » .

- ثم ختم القطبُ الدردير كلامَه الصَّريح عن هذه المرتبة بقوله : « **وأنَّ إضافتها إلىٰ الخليقَة إنَّما ذلك من باب المجاز لا الحقيقة** » ؛ لأنَّ هذه الصِّفات – في الحقيقة – لله من حيث الظُّهور كما ذكر رضي الله عنه ، وإنَّما تُنسب للخلق مَجازاً ، وهذا هو توحيد الصِّفات أو وحدة الصِّفات عند أهل المعرفة رضي الله عنهم .
- وهذا الذي ذكره سيدي الدردير.. هو الذي جاء به سيدي علي وفا قدس الله سره ، فقد نقل عنه سيدي العارف الشَّعراني رضي الله عنه في « الطبقات » في ترجمته رضي الله عنه قولَه :

« وكان يقول في حديث(**فإذا أحببته كنت سمعه**) وفي رواية(**كُنْتُهُ**) : ليس المرادُ به معنىٰ الحدوث في نفسِ الأمر ؛ لأنه كذلك بالذَّات ، وإنَّما ذلك ليكون الشُّهودُ مرتَّبًا علىٰ ذلك الشَّرط الذي هو المحبة ،

فمـن حيـث التَّرتيبُ الشُّـهوديُّ.. جاء الحـدوثُ ، لا مـن حيـث التَّقريـرُ الوجـودي ، فافهـم » انتهىٰ

ولـولا الضـرورة في رد تحريـف الأسـتاذ جـاد لـكلام سـيدي الدرديـر لمـا جلبنـا هـذه النصـوص الشـريفة التـي تضيـق عندهـا عقـول أهـل الأفـكار ، المقيّـدة بسـجن المحسوسـات عـن شـهود هـذه الأنـوار ، فاللهـم نسـألك السـلامة والهـدىٰ ونعمـىٰ عقبـىٰ الـدار .

وأزيـد بالقـول : هـذه المعرفـة الوفائيـة والدَّرديريـة هـي في الحقيقـة مـن عيـن المعـارف التَّوحيديَّـة الأكبريـة .

فقـد قـال مولانـا الشَّـيخ الأكـبر عـن هـذه الحقيقـة التـي ذكرهـا هنـا القطـب الدرديـر :

« ولا يعـرف هـذا.. إلَّا مـن تقـرّبَ إلـىٰ الله بنوافـل الخيـرات كمـا ورد في الصحيـح مـن الأخبـار النبويـة الإلهيَّـة ، فـإذا تقـرَّب العبـد إليـه تعالـىٰ بالنَّوافـل.. أحبَّـه ، وإذا أحبَّـه.. قـال الله تعالـىٰ : « فـإذا أحببتـه كنـت سـمعه وبصـره ويـده » . وفي روايـة : « كنـت لـه سـمعًا وبصـراً ويـداً ومؤيـداً » .

فقولـه : « كنـتُ ».. يـدلُّ علـىٰ أنـه كان الأمـرُ علـىٰ هـذا وهـو لا

يَشعر ، فكانت الكرامة التي أعطاه هذا التَّقربُ.. الكشفَ والعلمَ بأنَّ الله كان سمعَه وبصرَه ، فهو يتخيَّل أنه يسمع بسمعه ، وهو يسمع بربه... »[1] .

ولولا ضيق الوقت لشرحنا - بفضل الله علينا - كلَّ هذه المعارف النَّفيسة ، فالله يجعلنا من أهلها ويكتبنا في حزبهم ، آمين.

فأين كل هذا - بعد ما أوضحناه - من كلام الأستاذ جاد الله وتحريفه للنَّصِّ وتزويره للمعاني السَّامية والمعارف الوجودية الأكبرية الرَّاسية ؟!

***

(١) « الفتوحات المكيَّة »(٣/ ٧٦) .

المرتبة الثالثة :

توحيد الذات :

قال سيدي القطب الدردير رضي الله عنه :

« وهو أن لا يشهد مع الحق سواه ؛ بأن لا يرىٰ العبدُ الخصوصيُّ سوىٰ ذاتٍ واحدةٍ ، لا أبسط من وحدتها ، قائمةٍ بذاتها ، لا تقبل الكثرةَ بوجهٍ ، مقوِّمةٍ لتعيُّناتها وشؤونها التي لا تتناهىٰ ، وأنْ لا تَرىٰ أنَّ تلك التعيُّنات هي عينُ العَين المُعيِّنةِ لها ولا غيرها ؛ بل تلك التعينات.. قائمة بقيام الحق تعالىٰ لا بنفسها ، فهي كالظل الذي لا وجود له إلا بوجود الشخص القائم ؛ فالوجود الحَقِّي إنما هو للذَّات الواحد الذي ظهرت آثارُه في تعيُّناته الفَيئيَّة ، وهذه الوحدةُ بهذا الاعتبارِ.. هي المسمَّاة بـ« وحدة الوجود » ؛ إذ ما سواها شؤونٌ ومَظاهر وتعينات لذات الواجب الوجود ؛ حتىٰ كأنَّ وجودها بالنسبة إليه تعالىٰ عدمًا وهباء ؛ فلم يكن في الحقيقة وجود إلا للواحد .

وقد أشار أستاذنا السيد مصطفىٰ البكري صاحب « ورد السحر » بقوله في قصيدة :

وما الخَلقُ في التِّمثالِ إلَّا كثَلْجَةٍ

لها صورةٌ لكنْ تبدَّتْ عنِ الماءِ

إذا ظهرتْ شمسُ الوجودِ تُذيبُها

فتُرجِعُها ماءً بحاءٍ مع الباءِ

فذو الكشفِ لمْ يشهدْ سوىٰ الماءِ وحدَهُ

تبدَّىٰ بوصفِ الثَّلجِ مِنْ غيرِ إخفاءِ

ومَن حَجَبْتهُ صورةُ الثَّلجِ جاهلٌ

تَغطَّىٰ عليه الأمرُ مِن لَمْعِ أضواءِ

وقوله :(تَغطَّىٰ عليه الأمر من لمع أضواء).. كالعلةِ لجهله المركَّب ، وذلك أنه ظنَّ أن لهذه الصورة المحسوسة وجودًا في نفسها ، وأن لها أفعالًا تستقلُّ بها ، فقد اعتقد الشِّركة » انتهىٰ كلام سيدي القطب الدردير رضي الله عنه[1] .

---

(١) ثم بعد عامين من كتابة هذا الرَّد.. تبين لي أنَّ سيدي الدَّردير صدَّر كلامَه هذا كسابقه بكلام العارف عبد الرَّزاق القاشاني رضي الله عنه شارح« فصوص الحكم » ، وهو من قوله :« وهو أن لا يشهد مع الحق سواه ... » إلىٰ قوله :« وأنْ لا ترىٰ أنَّ تلك التعيُّنات هي عينُ العَين المُعيِّنةِ لها ولا غيرها » . وهذا بيانٌ جديدٌ بأنَّ القطب الدردير يأخذ ويفيض من معارف السَّادة أهل وحدة الوجود .

أما الأستاذُ جاد الله فقد نقل هذا النَّصَّ مصحَّفًا بسبب النُّسخة الَّتي عنده ، فمن التَّصحيفات التي أثبتها :

- « **قليلة** بذاتها » أثبتها الأستاذ بدل : « **قائمة** بذاتها » !!
- « لا تَرىٰ أنَّ تلك التعيّنات **هي العين المعينة** لها ولا غيرها » أثبتها الأستاذ بدل :« لا تَرىٰ أنَّ تلك التعيّنات **هي عين** العين المعينة لها ولا غيرها » .
- « الوجود **الخفيّ** » أثبتها بدل :« الوجود **الحَقِّي** »!
- « وما الحقُّ في التِّمثال » أثبتها بدل : « وما **الخلقُ** في التِّمثال » !
- « فترجعها **ماء اتحاد** مع الباء » أثبتها بدل :« فترجعها **ماءً بحاءٍ** مع الباء »!
- « وأن لها أفعالاً **تشغل** بها » أثبتها بدل :« وأن لها أفعالاً **تستقلُّ** بها »!

سردنا مواضعَ التَّصحيفات هذه التي أثبتها الأستاذ ؛ لأنه أظهر نفسه صاحبَ خبرةٍ بهذه المباحث ، فكتب في الحاشية أسفل هذا النَّص ما يلي :

« وقد حققتُ هذا النص من المخطوط كما تراه ، مع تصحيح بعض تصحيفات وقعت ، معتمداً علىٰ فطنة القارئ الذي اختار أن

يقرأ مثل هذه المباحث » انتهىٰ كلام الأستاذ ! !

قلتُ : لا أدري ما معنىٰ أنَّه يُصحِّحَ التَّصحيف اعتماداً علىٰ فطنة القارئ !

فلو قال : صحَّحتُها اعتماداً علىٰ خبرتي بهذه المباحث . **أو يقول** : تركتها ولم أصحِّحها اعتماداً علىٰ خبرة القارئ الذي يقرأ مثل هذه المباحث ؛ لكان كلامه مُستقيماً لا كما ترونه أعوج !!

ومن نظر إلىٰ التَّصحيفات التي زعم أنه صحَّحها .. لعلِمَ جيداً بأنَّ الأستاذَ .. لا خبرةَ له بمثل هذه المباحث ، وإنْ زعم خلاف هذا ، والعجيب أنَّه شرحَ بعضَها وهي مصحَّفة ؛ فوقع بطامَّات لا يقع بها من له أدنىٰ خبرة بمثل هذه المباحث كما سنرىٰ !

ثمَّ إنّ الأستاذ جاد الله تجاوز شرح أهمِّ ما في النَّص في أوله وآخره ليركِّز نظره علىٰ المثال الذي ضربه سيدي الدَّردير وهو (مثال الظل) ، ومع ذلك لم يفلح بليِّ عُنقه أيضاً ، وما ذلك إلا لأنَّ شرح هذه المصطلحات التي ذكرها سيدي الدردير قد أعيَتْ فكرَ الأستاذ ، وسنرىٰ ماذا قال عنها الأستاذُ عندما نصل إليها إن شاء الله .

نسوق الآن تعليقات الأستاذ جاد الله علىٰ هذا النَّص ، ثمَّ نتعقَّبها ، ثم نشرع بشرح النَّص الشريف إن شاء الله .

قال الأستاذ جاد الله بسام في تعليقاته علىٰ هذا النَّص :

« وعاء هذه المرتبة وظرفها هو شهود العبد ورؤيته ، لا واقع الأمر وحاقّ الحقيقة في نفسها ، أي ليس هو نفس الأمر ، وهذا بيِّنٌ واضح من ألفاظ الدردير رضي الله عنه » انتهىٰ

قلتُ : هذا الكلام رددناه مراراً ، وهو راجع كما شرحنا لعدم فهم الأستاذ معنىٰ الواقع الحقِّي الذي يُكشف لبصائر أهل الخصوص ، فراجِعه فيما سبق من مباحث .

فهو كمَن يقول لأهل هذه المرتبة : أنتم في أوهام ، فلا علم ولا معارف ؛ إذ العلم لدينا هو المطابق للواقع الذي نشاهده بأبصارنا ونعتبره بأفكارنا ، وأنتم يا أهل الخصوص لستم كذلك ! فشهودُكم محصورٌ فيكم ؛ إذ هو ليس واقع الأمر ولا نفسه ولا هي الحقيقة !

رغم أنَّنا نقرأ كلام القطب الدردير وهو يقول : « **فلم يكن في الحقيقة وجود إلا للواحد** »

فالإمـام رضـي الله عنـه يقـول :« في الحقيقـة » والأسـتاذُ جـاد الله يقـول : لا ، لا واقـع الأمـر ولا الحقيقـة في نفسـها !

ثم قال الأستاذ :

« أثبـت الإمـام الدردير للممكنـات وجـوداً بالتَّصريـح ، لكنـه وجـود تبَعـي يشـبه وجـود الظـل التابـع لأصلـه الـذي هـو صاحـب الظـل وهـذا الوجـود التبعـي لا يمكـن ثبوتـه بـدون متبوعـه الـذي هـو الوجـود الأصلـي ، وانظـر إلـىٰ قولـه : « **فهـي كالظـل الـذي لا وجـود لـه إلا بوجـود الشـخص القائـم** »

فالإمـام يصـور صاحـب هـذه المرتبـة التوحيدية بأنـه لـم يعتقـد عـدم العالـم حقيقـة مطلقـاً ، بـل اعتبره عدمـاً باعتبـار مجازي ، أي بالإضافة إلـىٰ عظـم وقـوة وأصالـة وجـود موجـده الواجـب الوجـود » انتهـىٰ كلام الأستاذ جاد .

قلـتُ : وكلُّ أهـلِ وحـدة الوجـود.. يُثبتـونَ الوجـودَ التَّبعـيَّ الظِّلِّـيَّ ، وقـد أشـرنا لهـذا مـن قبـل ، ونقلنـا بعـضَ كلماتهـم ، وسـنكمل فيمـا يلـي إن شـاء الله .

ونقـول: إنَّ وجـودَ الظِّـل التَّابـع لأصلـه.. ليـس وجـودا حقيقيـاً ؛

وإنَّمـا الوجـود الحقيقـيُّ للشَّـاخص أو مـا تسـميه : صاحـب الظـل ؛ فوجـود الظِّـل.. هـو وجـودُ الشَّـاخص ، ولا قيـام للظـل بنفسـه ؛ إذ لا وجـود لـه إلا بوجـود الشَّـاخِص ، فقـول الأسـتاذ : « أثبـت الإمـامُ الدرديـر للممكنـات وجـوداً بالتصريـح ».. صحيـحٌ ؛ إذ وجودهـا هـو وجـود مـن أقامهـا سبحانه ، فنحـن نقـول لـك كمـا قلـتَ : « وانظـر إلـىٰ قـول القطـب الدردير: « **فهـي كالظـل الـذي لا وجـود لـه إلا بوجـود الشَّـخص القائـم** » .

وكذلك قال الشَّيخُ الأكبر رضي الله عنه في « فصوص الحكم » :

« **اعلـم أنَّ المَقـولَ عليـه « سـوىٰ الحـق » أو مسـمىٰ العالَـم.. هـو بالنِّسـبة إلـىٰ الحـق كالظِّـلِّ للشَّـخصِ ، وهـو ظِـلُّ الله ، وهـو عيـنُ نسـبة الوجـود إلـىٰ العالَـم ؛ لأنَّ الظِّـلَّ موجـودٌ بـلا شـكٍّ في الحـس** » انتهـىٰ

ثم تابع الأستاذ جاد الله بسام بقوله :

« وانظـر أيضـا إلـىٰ قوله :(حتـىٰ كان وجودهـا بالنسـبة إليـه تعالـىٰ عدمـًا وهبـاء ، فلـم يكـن في الحقيقـة وجـود إلا للواحـد (؛ وهـو تصريـحٌ منـه بوجودهـا ، فوصفهـا بالعـدم مجـاز مـن جهـة ، حقيقـة مـن جهـة ، ولا يخفـىٰ أن كـون الشـيء مجـازا وحقيقـة معـا صحيـح ، لكـن ذلـك

بـاعتبارين ، فباعتبـار إطـلاق الوجـود هـي موجـودة حقيقـة معدومـة مجـازا ، وباعتبـار تقييـد الوجـود بالإضافة إلـىٰ وجـود الواجـب تكـون موجـودة مجـازا ، معدومة حقيقـة ، فمهما تصـورت هذيـن الاعتباريـن لـم تخفَ عليك إطلاقاتُهـم في هـذا البـاب الغامـض الدَّقيـق المسالك ، الذي تكثـر فيـه المُسـامحات في العبـارات ، لِغلبـة الإطلاقـات في الكلمـات » انتهـىٰ كلام الأسـتاذ

قلـتُ : لاحـظ أنَّ الأستاذ جاد الله قـد قـال أوَّلاً : « بـل اعتـبره عدمـًا باعتبـارٍ مجـازي »

يعنـي أنَّ قـول العارفيـن بعـدم العالـم.. إنَّمـا هـو قـولٌ مجـازيٌّ لا حقيقـي .

ثـم بعـد قليـل يقـول : « فوصفُهـا بالعـدم ؛ مجـاز مـن جهـة ، حقيقـة مـن جهـة » !

ومـا اضطـراب الأسـتاذ إلا لعـدم اتِّسـاق فهمـه وإدراكـه لحقيقـة مـا يقولـه سـيدي الدرديـر قـدس الله سـره .

وانظـر كيـف أن سـيدي الدرديـر رضـي الله عنـه يقـول : « **فلـم يكـن في الحقيقـة وجـود إلا للواحـد** »

كما أن الإمام الدردير قال بموضع آخر : « **وأن الوجود إنَّما هو للحق وحده** »

فيعلق الأستاذ بقوله : « وهو تصريح منه بوجودها » أيْ : المُمكنات !

فأي تقوُّلٍ بعد هذا وأي اضطراب ؟ فالإمامُ ينفي ، والأستاذ يُثبت !

ثم تابع الأستاذ جاد الله بسام بتلميحاته فقال :

« ولك أن تلمح أيضا إثبات وجود الممكنات من وصفه وجود الواجب بالخفي ، في مقابل وجود الممكنات ، أي الذي هو الظاهر ، وهذا إثبات لوجودها بلا شك » انتهىٰ

قلتُ : لو كان للأستاذ - كما يزعم - خبرةً بكلمات القوم رضي الله عنهم.. لعلم أن قولَ سيدي الدردير هو : (الوجودُ الحَقِّيُّ) وليس (الوجود الخفي) !

ونحن نقول له : طالما أنَّك قابلتَ بين الخفيِّ والظاهر ؛ لتنسب للمكنات وجوداً كما قلتَ : « بلا شك ».. فدعنا إذن نقابل

الكلمـةَ الصحيحـةَ - غيـر المُصحَّفـة - كمـا فعلـتَ فنقـول :

(ولـك أن تلمـح أيضـا بطـلان وجـود الممكنـات مِـن وصْفِـهِ وجـودَ الواجـبَ بالحقّي في مقابـل وجـود المُمكنـات ، أي الـذي هـو الباطـل ، وهـذا إثبـات لبطلانهـا بـلا شـك) فالـذي يقابـل الحـقَّ الثابـت.. هـو الباطـلُ المعـدوم .

فهـذا التَّصحيـف الـذي سـار عليـه الأسـتاذ جـاد الله.. قـد أفادنـا جـداً بإلزامـه وعليـه التزامـه كمـا هـو ظاهـر .

ثـمَّ جاءنـا الأسـتاذ بطامَّـةٍ جديـدة تؤكـد بأنـه ليـس قريبـًا مـن فهـم كـلام السـادة الصوفيـة ؛ بـل ولا هـو مـدرك لـه أصـلاً ، فقال الأستاذ جاد الله :

« ولـك أن تلمـح أيضـا أن جعلـه واجـب الوجـود ذاتـا منـاف لمسـلك أهـل الوحـدة الوجوديـة الفلسـفية الباطلـة ، فـإن واجـب الوجـود ليـس ذاتـا ، بـل هـو « الوجـود المطلـق » لكـن مـا قدمنـاه مـن التصريـح أوضـح وأشـفىٰ للقلـب » انتهـىٰ

قلـتُ : هـذا افـتراءٌ عليهـم ؛ فـإن الأسـتاذ فهِـم مـن قولهـم بـ(الوجـود المطلـق) نفـيَ الوجـود ! وذلـك تبعـًا لقـول مَـن قـال بـأنَّ الوجـود المطلـق.. لا وجـود لـه إلَّا ضمـن أفـراده ، وهـذا يؤكِّـد لنـا أنَّ الأسـتاذ

يعتقد بأن القائلين بوحدة الوجود.. إنَّما يجعلون المخلوقاتِ هي الله ! وهذا نفيٌ للوجود الذَّاتي للحق سبحانه ؛ بل قلبٌ لمعنىٰ ما يريدونه ، حيث جعلهم يقولون : بأنَّ الله هو مجموع أفرادِ العالَم ، والعياذ بالله ، هكذا فهِمَ الأستاذُ سامحه الله !

ولو وقفنا فقط عند هذه الجزئية مِن كلام الأستاذِ.. لكفانا في ردِّ ما يزعم أنه قد فهِمَه .

وعباراتُ الشَّيخ الأكبر ظاهرةٌ صريحةٌ في معنىٰ الوجود المطلق ، فهو اصطلاحٌ عندهم غير الاصطلاح الذي عند أهل الكلام ، والذي يريد الأستاذ أن يحاكمَهم عليه ، وتلك محاكمةٌ فاسدةٌ كما هو معلوم .

قال سيدي عبد الغني النابلسي رضي الله عنه :

(اعلم أنَّ « الوجود المطلق » الذي يُنكِرُ أهلُ النَّظرِ من المتكلِّمين وجودَه في الخارج ، ويقولون : « إنه وجود كُلِّيٌّ عقليٌّ لا وجودَ له في الخارج عن العقل إلَّا في ضمن جزئياته ، مثل بقية الكليات المعقولة ، وهو مشترك في الخارج بين وجودات الأشياء وبين وجود الواجب » ، ويقولون : « إنَّه مَقولٌ علىٰ جزئياته الخارجيَّة كلِّها بالتَّشكيك ؛ لأنها غير متساوية الأفراد في صدقه عليها ».. لا

ننكره نحن ولا غيرُنا من العقلاء ؛ إذ هو مفهومٌ عقليٌ لا وجود له إلا في العقل . وليس هو مرادنا بقولنا : إن وجودَ الواجبِ هو الوجودُ المُطلَق) [1] انتهىٰ

وهذا الشيخ الأكبر يقول :

« اعلم أنَّ الله سبحانه وتعالىٰ.. هو الوجود المطلق لا عن عدمٍ ؛ بل وجب وجوده لنفسه فلم يزل موجوداً ولا يزال واحداً في ذاته » [2] انتهىٰ

ويقول سيدي عبد الكريم الجيلي رضي الله عنه :

« ولهذا قلنا : إنَّ الذات.. هي الوجود المطلق »

ثم قال رضي الله عنه : « فمن المعلوم أن المراد بالذَّات هنا.. إنَّما هي ذات واجب الوجود القديم »[3] انتهىٰ

---

(١) « الوجود الحق والخطاب الصدق » ص١١٧.

(٢) « الدرة البيضاء » ص١٣ .

(٣) « الإنسان الكامل » تحت الباب الخامس عشر في مجلى الذات .

وكلام السادة في هذا المصطلح وتوضيح مرادهم فيه.. أشهر من أن يُذكر ؛ لتكرارهم إيَّاه في جلِّ ما صنَّفوه .

ثم تابع الأستاذ جاد الله بسام بقوله :

(قوله : « وهذه الوحدة بهذا الاعتبار هي المسماة بـ وحدة الوجود » . فوحدة الوجود هنا مأخوذة بلحاظ الاعتبار المذكور في صريح كلامه ، رضي الله عنه) انتهىٰ كلام الأستاذ

قلتُ : وهل أبقيت صريحاً في الموضوع يا أستاذ جاد الله ! بل قلبتَ الصريح إلىٰ القبيح ، ونظرت بعين عوراء إلىٰ أذواق أهل الصفاء ، وما هكذا تورد الإبل ياسعد !

ثم يتابع الأستاذ جاد الله بقوله :

(فلا يخفىٰ بعد ذلك علىٰ من كان من أهل التأمل والتدقيق والإنصاف ، والذين لا يتلقفون الألفاظ بالأهواء والبدع والاعتساف ، أن مجرد لفظ « وحدة الوجود » ليس كافيا في نسبة الإمام الدردير إلىٰ القول بوحدة الوجود الفلسفية الباطلة ، خصوصا أن الإشارات الماضية من كلامه رضي الله عنه والآتية أيضا تمنع هذا التلقف الفاسد ، بل نقول : إن هذا اللفظ ، أي « وحدة الوجود » قد

يطلق أحيانا ويراد به معنىٰ وحدة الشهود المقبولة عقلا و شرعا ، والمحكية عند أهل الله بلا نزاع فيها ، وهو مراد المصنف الدردير ههنا بشهادة ما سبق ، وهذا كاف لمن أنصف من نفسه ، ولم يتهور تهور الجسورين علىٰ شرف الأئمة وتراثهم وأديانهم) انتهىٰ كلام الأستاذ

قلتُ : المتهور الجسور علىٰ الخوض فيما لا علم له به.. دائماً ما يغطِّي ضعفه بكلماتٍ رنَّانةٍ يستثير بها عواطفَ أهلِ الجهلِ ؛ كي يقولوا : ماشاء الله ، تأمُّل ، تدقيق ، تحقيق ، إنصاف ...الخ ماشاء الله ماشاء الله !

وها قد رأينا أن كلام الأستاذ - مع الأسف الشديد - كله خلط وإجحاف ، يَخجل عنده المتأمِّل أن يُنعت لأجله بالإنصاف !

ثم لمَّا جئنا لأهمِّ كلمات القطب الدَّردير والتي تُصرِّح بأنه يريد وحدةَ الوجود ، لنرىٰ كيف وجَّهها الأستاذ جاد الله وكيف سيشرحها بما يتناسق مع وحدة الشهود التي يزعم أن القطب الدردير قائل بها ؛ وإذ بالأستاذ جاد الله يصادر علىٰ المَطلوب بخطابيَّاتٍ لا تصدُرُ ممَّن تصدَّر ، وإنَّما تؤكِّد بأنَّ الأستاذ في أطراف كلماتهم قد تعثَّر ، فقال :

« جاء في كلام الإمام الدردير ألفاظ تشيع في كتب القائلين بوحدة

الوجـود الفلسـفية الباطلـة ، كالتعيّنـات والشـؤون والمظاهـر وسـواها ، وقـد يغـتر بمجـرد إيـراد هـذه الألفـاظ بعـضُ النـاس ، فيسـبق إلـىٰ عقولهـم وقلوبهـم أن الإمـام الدردير مـن أهـل وحـدة الوجـود الفلسـفية الباطلـة ، وهـو كلام غيـر صحيـح ، ومنشـؤه عـدم المعرفـة الحقيقيـة بمذهـب وحـدة الوجـود ، وقـد وضحنـاه فيمـا سـبق ، فليرجـع إليـه ، وليتنبـه لهـذا » انتهـىٰ كلام جـاد الله بسـام

أقـول : إنـا لله وإنَّـا إليـه راجعـون ، بعـد اعترافـه بأنها اصطلاحـات عند أهـل وحـدة الوجـود.. كان هـذا هـو ردَّ الأسـتاذ ؛ إذ يقـول للقارئيـن : لا تَغـترُّوا بإيـراد مصطلحـات أهـل الوحـدة ، خلـص انتهينا !

طيـب كيـف يـا أسـتاذ ، أيـن معانيهـا ، ولمـاذا ذكرهـا القطـبُ الدردير ، هـل هـو لغـو وحشـو في الـكلام ، وهل ...وهـل ... ؟!

الجـواب عنـد الأسـتاذ : لا تغـتروا بمجـرد إيرادهـا ، أنتـم لا تعرفـون حقيقـة معنـىٰ وحـدة الوجـود !

بـل تـركَ الأسـتاذُ كلامـاً طويـلاً جليـلاً لسـيدي الدرديـر فيـه كذلـك مصطلحـات أهـل وحـدة الوجـود ، فمـاذا تظنـون أنـه قـال عنهـا ؟

قال عنها الأستاذ :

« وهناك تتمَّات لهذا الكلام قد تشكل علىٰ بعض الناس ، عندي تأويلها بإذن الله تعالىٰ ، وقد يظن ظان أنها محالة أو أنها تدل علىٰ وحدة الوجود ، وليست كذلك ، فليتأمل من نظر فيها... » انتهىٰ .

قلتُ : هذه مصادرة واضطراب ، فإنا لله وإنَّا إليه راجعون !

وتابع الأستاذ بقوله :

« ومن الناس من لا يغتر بمجرد إيراد هذه الألفاظ ، لكنه – ويا للحسرة – يغرر الصالحين من عباد الله الضعفاء عن إدراك ما هنا من خفيات المذاهب والاصطلاحات بمجرد إيرادها عند الأئمة الأعلام ، فيدعوهم إلىٰ وحدة الوجود الفلسفية الباطلة ، لما أن الأئمة بمقتضىٰ تغريره قائلون بها ، وهم في الحقيقة يتبرأون منها ، كما ستشاهده لاحقا من صنيع الإمام الدردير نفسه ، ولا يخفىٰ علىٰ الأقوياء في العلوم ، أولي الحزم والفهوم ، أن العبرة في العقائد بالعقود والمعاني ، لا بالألفاظ والمباني ، فهذا ما ينبغي أن نسجله من الملحوظات الهامة » انتهىٰ

أقول : انظروا إلىٰ تخبُّطات الأستاذ كيف فعل به ورود هذه المُصطلحات **والتي هي تصريحٌ من القطب الدردير بوحدة الوجود لمن له أدنىٰ معرفة** ، وكما قلنا لكم سابقًا: بأنَّ الخائض في غير

فنِّه.. يغطِّي ضعفَه بالكلمات الرَّنَّانة ؛ فجاءنا الأستاذ بقوله : « ولا يخفىٰ علىٰ الأقوياء في العلوم ، أولي الحزم والفهوم » ! يشير الأستاذ إلىٰ نفسه بأنَّه منهم ؛ ليتقوَّىٰ بهذه الكلمات مَن يحبُّه ويرهبَ من يعارضه ، وهيهات هيهات .

ولكن دعونا نقف قليلاً - قبل أن نشرح كلام القطب الدردير - علىٰ قول الأستاذ جاد الله : « ولا يخفىٰ علىٰ الأقوياء في العلوم ، أولي الحزم والفهوم ، أن العبرة في العقائد بالعقود والمعاني ، لا بالألفاظ والمباني ، فهذا ما ينبغي أن نسجله من الملحوظات الهامة » انتهىٰ

فهل هذا المنهج هو الذي يتبعه الأستاذ وشيخه سعيد فودة في كلام القوم رضي الله عنهم ؟

لا ، فهُم يقولون : نحن نُحاكم ابنَ عربي بما يَظْهَرُ من كلامه ، فهذا كلامه أمامكم واضحُ الألفاظِ والمباني ، ولا عبرة عندنا بقصده ! هذا ما يقولونه ؛ بل كلُّ اعتراضاتِهم مُنطَلِقَةٌ من هذا ! فلماذا هذا التَّخبُّط في المنهج ؟!

نحن نقول : السبب في التَّخبُّط هو الجهل والهوىٰ ، فقط .

والآن بعد أن أظهرنا عبثَ الأستاذ جاد الله بسام في تفسيره لقول القطب الدردير رضي الله عنه ، السابق.. نشرع بشرحه إن شاء الله ، **وسنشرحه بلسانَين ؛ لسانِ المَزج ولسانِ التَنزُّلِ** ، فنقول وبالله التَّوفيق والسَّداد :

قال سيدي القطب الدردير رضي الله عنه :

« **توحيد الذَّات:** وهو أن لا يشهد مع الحق سواه ؛ بأن لا يرىٰ العبدُ الخصوصيُّ سوىٰ ذاتٍ واحدةٍ لا أبسط من وحدتِها ، قائمةٍ بذاتها لا تقبل الكثرةَ بوجهٍ ، مُقوِّمةٍ لتعيُّناتِها وشؤونِها التي لا تتناهىٰ ، وأنْ لا تَرىٰ أنَّ تلكَ التَّعيُّنات هي عين العين المعيِّنة لها ولا غيرها ؛ بل: تلك التعينات.. قائمةٌ بقيام الحق تعالىٰ لا بنفسها ، فهي كالظِّلِّ الذي لا وجود له إلا بوجود الشَّخص القائم ؛ فالوجود الحقِّيُّ.. إنَّما هو للذَّات الواحدِ الذي ظهرتْ آثارُه في تعيُّناتِهِ الفيئيَّة ، وهذه الوحدة بهذا الاعتبار هي المسماة بـ« وحدة الوجود » ؛ إذ ما سواها.. شؤونٌ ومظاهر وتعيُّنات لذاتِ الواجب الوجود ؛ حتىٰ كأنَّ وجودها بالنِّسبة إليه تعالىٰ.. عدمٌ وهباءٌ ؛ فلَم يكن في الحقيقة وجودٌ.. إلَّا للواحد .

وقد أشار أستاذنا السَّيد مصطفىٰ البكري - صاحب« ورد السَّحَرِ » - بقوله في قصيدةٍ :

وما الخَلقُ في التِّمثالِ إلَّا كَثَلْجَةٍ
لَهَا صُوْرَةٌ لكِنْ تَبَدَّتْ عَنِ المَاءِ
إذا ظهرتْ شمسُ الوجودِ تُذيبُها
فتُرجِعُها ماءً بحاءٍ مع الباءِ
فذو الكشفِ لم يشهَدْ سوىٰ الماءِ وحدَهُ
تبدَّىٰ بوصفِ الثَّلجِ منْ غير إخفاءِ
ومَن حجبتْهُ صورةُ الثَّلجِ جاهلٌ
تَغطَّىٰ عليه الأمرُ مِن لَمْعِ أضواءِ

وقوله: (تَغطَّىٰ عليه الأمرُ مِن لَمْعِ أضواءِ).. كالعِلَّةِ لجهله المركَّبِ ؛ وذلك أنه ظنَّ أنَّ لهذه الصورة المحسوسةِ وجودًا في نفسها ، وأنَّ لها أفعالًا تَستقلُّ بها.. فقد اعتقدَ الشِّركةَ » انتهىٰ كلام سيدي القطب الدردير رضي الله عنه.

يُفهم من قول سيدي القطب الدردير قدس الله سره الكبير :

أنَّ ذوقَ المعرفةِ المُسماة بـ « وحدة الوجود ».. لا تحصل لكلِّ أحد ، وإنَّما هي للعبد الخصوصيّ ، وهذا العبد الخصوصيُّ هو الذي : لا يشاهد بقلبه و« لا يرىٰ » من حيث الحقيقة « إلَّا ذاتًا واحدةً » لا بطريق العدد ،« بسيطةً » لا ثنويَّة فيها ،« قائمةً بذاتها » أزلاً وأبداً ،« لا تقبل هذه الذَّات » من حيث هي « الكثرةَ

بوجهٍ » مِـن كلِّ الحيثيَّات ،« مُقوِّمةً » بسـرِّ القيوميَّـة الـذي قـام بـهِ كلُّ شـيءٍ « لِتَعَيُّناتِها » مِن حيـثُ الظهـورُ بالمراتِـبِ ؛ فتتعيَّـنُ كلُّ المراتـبِ بهـا « وشـؤونِها » الغيريَّة المسـماة بالخلـق والسِّـوىٰ « التـي لا تتناهـىٰ » .

« وأنْ لا تَرىٰ » من حيث الحقيقة « أنَّ تلك التعيّنات » والشؤون..« هي عين العين » القائمة بذاتها « المعيِّنةِ لها » أي : لهذه التعيّنات والشُّؤون ؛ فهي ليست عينَ هذه الأشياء المفروضة المقدَّرة العدمية ؛ إذ كيف يكون الوجودُ عينَ العدم ؟ « ولا غيرها » من حيث ظهور الوجود الحق ؛« بل تلك التعينات » والشؤون « قائمةٌ » في الحقيقة « بقيام الحق تعالىٰ » من حيث ظهورُه كما ذكرنا « لا بنفسها » كما يزعم أهلُ الغفلة والحجاب « فهي » أي : التعينات والشؤون الغيريَّة « كالظِّلِّ الذي لا وجود له » بالنَّظر إلىٰ ذاته « إلا بوجود الشخص القائم » .

« فالوجـود الحَقِّي » علـىٰ الحقيقـة والتَّحقيـق « إنَّمـا هـو للـذَّات الواحـد » أزلا وأبـداً « الـذي ظهـرت آثارُه » مـن حيـث تجلِّيـه في مراتـب أسـمائه وصفاتـه « في تعيُّناته » وشـؤونِه « الفيئيَّةِ » الظِّلِّيَّـة .

« وهـذه الوحـدة بهـذا الاعتبار » والحيثيـة المذكـورة ، حيـث يَعْبُـر العبـدُ الخصوصـيُّ مِـن قِشـر المَجـاز إلـىٰ لُـبِّ الحقيقة..« هـي

المسماة بـ» مقام « وحدة الوجود ؛ إذ ما سواها » أي : هذه الذات الواحد بهذا الاعتبار « شؤونٌ » عدميةٌ تجلَّىٰ بها الوجودُ الحق « ومظاهرُ » اعتباريَّةٌ ظَهَرَ بها « وتعيُّناتٌ » كالمَرائي المتعدِّدة « لذات الواجب الوجود ؛ فلا هو حالٌّ ولا مُتَّحدٌ ، ولا عينٌ ولا غيرٌ » سبحانه ، فهو الوجود المطلَقُ الظَّاهرُ في كلِّ إطلاقٍ وتقييدٍ « حتىٰ كأنَّ وجودها » أي : هذه الشؤون والاعتبارات والمظاهر الغيرية المُسماة بالخَلق كما ذكر « بالنسبة إليه تعالىٰ.. عدمٌ وهباءٌ » ؛ إذ الحادث المفروض المقدَّر إذا قُرِن بالقديم.. بقيَ القديمُ وفنيَ الحادِثُ وتلاشىٰ ، كما ذكر ذلك الإمامُ الجُنيد .

«فلَمْ يكن في الحقيقة » والواقعِ ونفسِ الأمر « وجودٌ » قائمٌ بنفسه..« إلا للواحد » تعالىٰ ، ولا وجود قائم لغيره ؛ بل هو سبحانه المقيمُ لكلِّ شيء ، كما ذكرنا انتهىٰ .

قلتُ : هذا شرحٌ مَزجيٌّ لعبارات الإمام الدَّردير ؛ لأُبرِزَ للمُعترِضِ عدمَ اعتياصِ فهمِنا لكلام الإمام ؛ بل هو مفهومٌ لنا ولكلِّ مُحِبٍّ بفضلِ الله تعالىٰ ، حيث إنَّ الشَّرحَ المزجيَّ.. يستنطِقُ الكلماتِ مِن غيرِ تكلُّفٍ ، لا كما رأينا تكلُّفات الأستاذ جاد الله ، الذي تجاوز هذه العبارة للإمام الدردير ، ولم ينطق عنها إلَّا بقوله :

« جاء في كلام الإمام الدردير ألفاظ تشيع في كتب القائلين بوحدة الوجود الفلسفية الباطلة ، كالتعيّنات والشؤون والمظاهر وسواها ، وقد يغتر بمجرد إيراد هذه الألفاظ بعضُ الناس ، فيسبق إلىٰ عقولهم وقلوبهم أن الإمام الدردير من أهل وحدة الوجود الفلسفية الباطلة ، وهو كلام غير صحيح ، ومنشؤه عدم المعرفة الحقيقية بمذهب وحدة الوجود ، وقد وضحناه فيما سبق ، فليرجع إليه ، وليتنبه لهذا » انتهىٰ

هكذا كان كلُّ شرحه لها وكل جوابه عنها ! وما علم الأستاذ بأنَّ الإمام الدردير قد نقلها عن كتاب العارف عبد الرزاق الكاشاني ، شارح « فصوص الحكم » للشيخ الأكبر رضي الله عنهما .

ونحن إذ نعتقدُ بأنَّ الأستاذَ لم يفهم شرحَنا هذا كما يجب ؛ **لذا نَتَنزَّلُ له في الشَّرح ؛ لنُظهر له بعضَ المعاني** ، لَّعلَّه يتيقَّن - هو ومن يغترُّ به - بأنَّ القطبَ الدَّردير قدس الله روحه.. قائلٌ بوحدة الوجود ؛ بل يعتبرُ وحدةَ الشُّهود.. نقصاً بالنسبة لها ، كما سنراه إن شاء الله تعالىٰ .

فنقول وبالله التوفيق :

أما قوله رضي الله عنه : « وهو أن لا يشهد مع الحق سواه »

فقد فسر الإمام الشهودَ هنا بالرؤية فقال: « بأن لا يرىٰ العبدُ... الخ » ، وهذا مهمٌّ ؛ لأنَّ الأستاذ جاد الله وبعض طلاب مدرستهم كانوا إذا رأوا بكلام إمام كلمة« **يشهد** » ومشتقاتها.. يفسِّرونها بوحدة الشهود ! ولعمري إن هذا من السَّذاجة بمكان سَحيق ؛ لكن الإمام قطع عليهم هنا هذا الطريق ؛ فقال: « بأن **لا يرىٰ** العبدُ الخصوصي » ؛ فعبَّر بالرُّؤية التي تعني رؤيةَ التَّحقيق والحقيقة .

• ونرىٰ أن القطب الدردير رضي الله عنه.. خصَّ أذواق هذا المقام العزيز بالعبد الخصوصي ، لا أي شخص ؛ بل عبدٌ ؛ أي: متحقِّقٌ بالعبوديَّة ، وهذا التَّحقُّق هو الذي أعطاه نعتَ الخصوصيَّة فخرج عن طور أهل الحجاب والغافلين والعامة وأهل الرُّسوم .

• قولـه رضـي الله عنه :« سـوىٰ ذات واحدة »: يعنـي بالـذات هنـا.. ذاتَ الحـق سـبحانه وتعالـىٰ ؛ لكـن لا مـن حيـث هـي ؛ فـإنَّ الـذَّات مـن حيـث هـي.. لاتُنـال دنيـا ولا أخـرىٰ ، وبهـذا صـرَّح الشـيخُ الأكـبر مِـراراً ، وهـو الأمـر الـذي لـم نجـد عنـد مدرسـة الأسـتاذ فـودة أيَّ علـمٍ بـه ؛ بـل هـم فيـه في خلـط عجيـب جـداً ، وقـد رأينـا كيـف أن الأسـتاذ جـاد الله قـد فهـم منهـم معنـىٰ الوجـود المطلـق ؛ بمعنـىٰ العـدم ، فعكـس القضية !

قال الشيخ الأكبر :

ولَيْـسَ تُنـالُ الـذَّاتُ مِـنْ غَيْـرِ مَظْهَـرٍ

ولَـو هَلَـكَ الإنسانُ مِـنْ شِـدَّةِ الحِرصِ

فالعـارف يُشـاهِدُ الـذات.. مـن حيـث ظهورهـا في مرايـا الأسـماء والصفـات .

أو قل: يُشـاهِدُ أسـرارَ الـذات.. في انعـكاس إشـراق أنـوار الأسـماء والصفـات .

أو قل : يُشاهدُ نورَ الأحدية.. في آثار مقتضىٰ الواحدية .

أو قـل : يشـاهد غيـب القـدرة في ظاهـر الحكمـة ، أو يشـاهد ظهـورَ القـدرة في مَظاهـر الحكمـة .

أو قل : يُشاهدُ النُّقطةَ في الخط .

أو قـل : يشـاهد المـاءَ في الثَّلـج ، كمـا سـيذكره القطـب الدرديـر رضي الله عنـه .

• أما قـول القطـب الدرديـر رضـي الله عنه :« لا أبسـط مـن وحدتها » : لأنـه تعالـىٰ واحـد لا مـن طريـق العدد .

ومعنىٰ أنـه واحـدٌ لا مـن طريـق العـدد.. لا يفهمـه إلا مـن عـرف معنىٰ وحـدة الوجـود ؛ وإلَّا فلـن يسـتطيع تصـور الواحـد إلا عدديّـاً مـن جنـس الأعـداد ، ثـم يعـود لينزهَـه عمـا كان قـد تصـوَّره ، وهكـذا يبقىٰ في اشـتباه وخيـال وأوهام .

بينمـا التنزيـه الحقيقـي يقتضـي أنـه تعالـىٰ واحـدٌ ؛ لكـن لا الوحـدة العدديَّة ؛ فـإن الواحـدَ العـدديَّ يقتضـي في الوهـم وجـودَ اقـترانٍ ومقابـلٍ وأنـدادٍ مِـن الأعـدادِ ؛ فيـؤدي للكثـرة المنافيـة للوحـدة الحقيقيـة !

فالواحـد لا بطريـق العـدد المقصـود بـه: أنـه واحـدٌ مطلَـقٌ مـن جميـع

الوجوه ، به قامت كلُّ مراتب الأعداد ، فما خرج عن وحدته شيء ، فلا كثرة مطلقاً وإن ظهرَ بكل المراتب .

فليست المراتب عينه ولا غيره كما نصَّ عليه الإمامُ الدردير قدس الله روحه ؛ ولذا قال رضي الله عنه : « قائمة بذاتها ، لا تقبل الكثرة بوجهٍ ، مقوِّمة لتعيناتها وشؤونها التي لا تتناهىٰ ، وأنْ لا تَرىٰ أنَّ تلك التعيّنات هي عين العين المعيِّنة لها ولا غيرها » .

• ثم أتبع قوله قدس الله سره :« بل تلك التعينات » : أي المخلوقات ، ظاهرها وباطنها ، وأرواحها وأجسادها ، وجوهرها وعرضها ، كل هذه التعيُّنات والشُّؤون.. « قائمة بقيام الحق تعالىٰ لا بنفسها »

• ثم ضرب مثلاً ليقرِّب المعنىٰ للأفكار ، فإن هذه المعاني لا تدرك عن طريق الفكر بالمطابقة ؛ وإنَّما بالكشف والذَّوق كما صرَّح الإمام ، فأراد التقريبَ بضرب المثال فقال رضي الله عنه : « فهي كالظِّل الذي لا وجود له إلا بوجود الشَّخص القائم »

• ثم تابع روحي فداه بقوله :« فالوجود الحَقِّي إنَّما هو للذَّات الواحد » : إذن ماسواه.. وجودٌ غير حقِّي ؛ بل باطلٌ عدميٌّ { كلُّ شيء هالكٌ إلا وجهه } ،(ألا كلُّ شيءٍ ماسوىٰ اللهِ باطلُ)

• وهـذا الوجـود الحقّي ؛« ظهـرت آثـاره في تعيُّناتـه الفيئيَّـة » أي: ظهـرت آثـار قدرتـه في هـذه الأغيـار الظليَّـة المفروضـة المقـدَّرة العدميـة ؛ فهـي كالخيـال .

• بـل صـرَّح بهـذا مـرة أخـرىٰ في موضـع آخـر مـن هـذه الرسـالة – وقـد تجاوزهـا الأسـتاذ جـاد الله غفـر الله لـه – وهـو قـول الإمـام رضـي الله عنه :« الظاهـر في آثـار قدرتـه ، حتـىٰ لـم يُـرَ إلا إيـاه ؛ إذ الغيـر إن حققـتَ.. وجدتَـه كالخيـال ، وإن أمعنـتَ النظـر.. فإنمـا هـو مجـرَّد مِثـال ؛ كمـا قـال :

رأيـتُ خيـالَ الظـلِ أكـبرَ عِبْـرَةٍ
لِمَـنْ هـو في عِلْـمِ الحَقيقَـةِ راقِـيْ
شُـخوصٌ وأمثـالٌ تَمُـرُّ وتَنْقَضِـيْ
وتَفْنَـىٰ جميعًـا والمُحـرِّكُ باقِـيْ»

قلـت : فانظـر لتأكيـد الإمـام مـراراً بـأنَّ الأغيـارَ والسِّـوىٰ في الحقيقة.. كالخيـال ؛ بـل هـي مجـرَّد مثـال ، والمثـال اعتبـار لا وجـودَ لـه في ذاتـه ؛ لتعلـم كيـف أنَّ الأسـتاذ.. قـد لـوىٰ أعنـاقَ النُّصـوص لتوافـق هـواه حتـىٰ قـال : قـول الإمـام بمجازيـة الأشـياء ؛ مجـاز !

نرجع فنقول :

خيالُ الظِّلِّ : هو إسدالُ السِّتار وتوجيهُ الأنوارِ عليها ؛ بحيث تنطبعُ عليها ظلالُ الأشياءِ التي تُحَرَّكُ خلفَها ؛ فهي كالمسرح ، وكانوا يُسمُّونه بـ « خيال الظِّل » .

فشبَّهَ الإمامُ الأشياءَ بهذه الظِّلال المُتحرِّكة علىٰ المَسرح ؛ فهي لا وجود لها إلَّا وجود مُحرِّكِها مِن خَلفِها ، فله الوجودُ الحقيقيُّ ، ولها الوجودُ المَجازيُّ الظِّلِّيُّ .

ثمَّ تابعَ الإمام قولَه : « وهذه الوحدة بهذا الاعتبار هي المُسمَّاةُ بـ« وحدة الوجود » ؛ إذ ما سواها شؤونٌ ومظاهر وتعيناتٌ لذات الواجب الوجود » . انتهىٰ

ولا أعلم أنَّ هناك تصريحاً أشدّ وضوحاً مِن هذا التَّصريح الذي تجاوزَه الأستاذُ ؛ بل قال بكل سُخفٍ: لا تَغترُّوا بإيراد الإمام لهذه الألفاظ والاصطلاحات !

وكأنَّ الإمامَ رضي الله عنه وضعها حشواً أو للتفكُّه والتَّسليةِ ! سامح اللهُ الأستاذَ جادَ الله ، فهو كما قيل : تمخَّض الجبلُ فولَدَ فأرةً .

• وختم الإمام بقوله : « حتىٰ كأنَّ وجودَها بالنِّسبة إليه تعالىٰ عدمٌ وهباءٌ ؛ فلم يكن في الحقيقةِ وجودٌ إلَّا للواحد » انتهىٰ

• ثم جاء سيدي الدردير بأبيات لطيفةٍ تنصُّ علىٰ وحدة الوجود – كذلك تجاوزَ شرحها الأستاذُ جاد الله – وهي قول سيدي مصطفىٰ البكري قدس سره :

وما الخَلقُ في التِّمثالِ إلَّا كثلجةٍ

لها صورةٌ لكنْ تبدَّتْ عن الماءِ

وهذا البيت أخذ الإمامُ البكري صدرَه ؛ اقتباسًا من أحد أعظم العارفين القائلين بوحدة الوجود ، وهو سيدي عبد الكريم الجيلي قدس سره ، كما في عَينيَّتِه المشهورة ، حيث قال :

وما الخَلقُ في التِّمثالِ إلَّا كثلجةٍ

وأنتَ بها الماءُ الذي هوَ نابِعُ

قلتُ : فماذا بقيَ لمن يلوي أعناقَ النُّصوص ؛ لتوافق هوىٰ النُّفوسِ كفعلِ الُّلصوص ؟

هذا عبثٌ بكلام أئمتنا ، وإلىٰ الله المشتكىٰ وحده .

والأبيـات ظاهـرةٌ مفهومـةٌ ، وهـي نـصٌّ آخـر بوحـدة الوجـود ، ومَـن أراد تحقيـقَ معانيهـا.. فليرجـع إلـىٰ شـرح سـيدي عبـد الغنـي النَّابلسـي قـدس سـره لعينيـة سـيدي الجيلـي في كتابه« شـرح المعـارف الغيبيَّـة في شـرح العينيَّـة » ، فسـيرىٰ –مع اختصـار الشَّـرح – العلـمَ العزيـزَ الغزيـرَ ، والله يهـدي مَـن يشـاء إلـىٰ صـراط مستقم .

• ولا ننسىٰ قـول سيدي الدردير ونعْتَـه مَـن يعتقـد بـأنَّ للمخلوقـات وجـوداً مسـتقلاً قائمـاً.. بالجهـلِ المركَّـب ، فقـال رضـي الله عنـه :

« وقوله :(تَغطَّـىٰ عليـهِ الأمـرُ مِـن لَمْـعِ أضواءِ) كالعلـةِ لجهلـه المركَّـب ، وذلـك أنـه ظـنَّ أن لهـذه الصـورة المحسوسـةِ وجـودًا في نفسـها ، وأنَّ لهـا أفعـالًا تسـتقلُّ بهـا ، فقـد اعتقـد الشِّـركة » انتهـىٰ

نسـأل الله أن يحقِّقنـا بالعلـم الحـق فنُرجع الوجـودَ لـه وحـده ؛ فـإنَّ شـهودَ الوجـودِ ثابتـًا للمخلوقـات.. مـن أعظـم الذُّنـوبِ عندَهـم رضـي الله عنهـم ؛ لأنـه كمـا قـال سـيدي الدرديـر : « شـركٌ »

وكما قال سيدي أرسلان « كلُّكَ شركٌ خفيٌّ » .

وكما قال سيدي الجُنيد رضي الله عنه :

فإنْ قلتُ ما ذنبي إليكَ ، أجبتَني :

وجـودُكَ ذنـبٌ لا يُقـاسُ بـه ذنـبُ

أي : نسـبتُك الوجـودَ لـك.. مـن أعظـم ذنـوبِ المحبيـن وأخطـرِ الغفـلات عنـد العارفيـن ، ولا حـول ولا قـوة إلا بـالله العلـي العظيـم .

***

كنَّا قد قدمنا فيما سبق الفرقَ بين وحدة الوجود ووحدة الشهود ، وقلنا بأن الأُولىٰ تعني البقاء ، والثانية تعني حال السُّكر والفناء ، وأثبتنا بنصوص القطب الدردير نفسه بأنه يقصد وحدةَ الوجود (المقام) لا وحدةَ الشهود (الحال) ، وأظهرنا بالدلائل والشرح عدم فهم الأستاذ جاد الله بسام لجُلِّ مصطلحات هذه الطَّائفة ؛ حتىٰ إنَّه تَهرَّبَ مِن شرحِها وجعل مِنَ الإمام الدَّردير قائلاً بالكلام من باب اللَّغوِ أو الحَشْوِ ، وكل هذا قد أثبتناه من كلام الأستاذ نفسه .

لكن تعالوا نرىٰ بعد كل هذا ماذا وجد الأستاذ ؟

وجد الأستاذُ جاد الله نصًّا للإمام الدردير ؛ طارَ به فرحًا ، ووصفه بأنه تصريحٌ من القطب الدردير بإبطال وحدة الوجود ، وأنه تفسيرٌ لمُجمَل كلامه السابق ! مع علمنا بأن كلام القطب الدردير السابق لم يكن مجملاً كما يزعم الأستاذ ؛ بل كان كلامًا مفصَّلاً دقيقًا !

فما هو هذا النص الذي وجده الأستاذ وطار به فرحًا ؟

هو قول سيدي القطب الدردير رضي الله عنه :

« ويؤخذ منها أيضًا : أن هناك شيئًا بديعًا مُحكمًا مُتقنًا حادثًا

متجددًا بعد عدم ، وهو العالم بأسره ؛ فهو غيرُ الله قطعًا ؛ لأنه أثر قدرته تعالىٰ وإرادته وعلمه ، وكلُّ أثرٍ فهو غير المؤثِّر ، وأنَّه موجودٌ قطعًا ؛ لكن وجوده إمكانيٌّ لا واجبٌ ، بخلاف وجود الحق تعالىٰ فإنه واجبٌ ؛ لكنَّ العارفَ لمَّا أمعنَ بصيرتَه واستغرق في بديع صنع الله تعالىٰ.. قال حال دهشته وسُكره : « ما ثمَّ غير الله » ، ومتىٰ صحا.. عرف أنَّ لهذا العالم وجودًا في نفسه ، وإن كان لا استقلال له بالوجود ؛ بل هو قائم بالقدرة الأزلية »[1] انتهىٰ كلام القطب الدردير رضي الله عنه .

فعلَّقَ الأستاذُ جاد الله علىٰ هذا النصِّ بحسب ما توهَّمه قائلاً :

« ثم لا يخفىٰ علىٰ القارئ الكريم أن هذا النص من كلام القطب رضي الله عنه ؛ تصريح آخر بإبطال وحدة الوجود الفلسفية الباطلة ، فإن ما نسميه بـ « العالم » ليس له وجود في نفسه عند أصحاب الوحدة الوجودية ، خلافا لما صرح به القطب الدردير ، بل هو عندهم مجرد شأن من شؤونات الوجود المطلق ، وتعين من تعيناته ، ومظهر من مظاهره ، فلا اثنينية عندهم ، ولذلك سموا بأهل الوحدة ، وأما المقامات التي يتكلم عنها القطب الدردير في مراتب في التوحيد الشهودي ، وليست من مذهب الوحدة في شيء »

---

(١) « مشكاة الأسرار » ص٢٧-٢٨ .

انتهىٰ كلام الأستاذ جاد الله بسام.

قلتُ : إنَّ الأستاذ جاد الله بسام.. مازال يُغالطُ نفسَه ويُعاني مِن ضرباتِ كلماتِ إمام أهلِ السُّنَّة القطب الدردير قدس الله روحه ؛ فتراه يُحاول أن يجدَ كلمةً مِن هنا أو هناك تساعده علىٰ حمل معنىٰ وحدة الوجود عند الإمام الدردير إلىٰ وحدة الشهود التي يتوهَّمها ؛ فتوهَّم أنه وجدَ في هذا النَّصِّ ما يرجوه ، لكن الأمر ليس كذلك يا أحبابنا ؛ **بل هذا النَّص زيادةُ تفصيلٍ من القطب الدردير رضي الله عنه .**

فالقطب الدردير رضي الله عنه قد تكلَّم سابقًا - كما وضَّحنا مِن نصوصه الشَّريفة - عن مقام وحدة الوجود ، وأنَّه مقامُ البقاء والكمال ، وأنَّ العارفَ المُتحقِّقَ ؛ يُخاطِب فيه صاحبَه بـ : يامولاي ياواحد ؛ لأنَّ الأشياءَ عند المتحقِّق بهذا المقام.. مظاهرُ الوجودِ الحقِّ الواحد ، وشؤونُه وتعيُّناتُه .

كل هذا وجدناه بتصريح القطب الدردير نفْسَهُ ، **والآن نجد القطب الدردير قدس الله سرَّه يفرِّق بين وحدة الوجود ووحدة الشهود** ، فهو رضي الله عنه علىٰ درايةٍ بالمصطلحات ، لا كما يزعم الأستاذ بأنَّه يطلق مصطلحًا ويقصد منه خلاف معناه !

فالقطب الدردير يتكلم هنا عن أهل السُّكر بتصريحٍ واضحٍ ، وأهلُ السُّكر هم أهل الاصطلام والمحو والفناء ، فقال :

« لكن العارف لما أمعن بصيرته واستغرق في بديع صنع الله تعالىٰ.. **قال حال دَهْشَتِهِ وسُكْرِهِ** : ما ثم غير الله . ومتىٰ صحا.. عرف أن لهذا العالم وجودًا في نفسه ، وإنْ كان لا استقلالَ له بالوجود ؛ بل هو قائم بالقدرة الأزلية » انتهىٰ كلام القطب الدردير رضي الله عنه.

فدقِّق في قوله : « **حال دهشته وسكره** ».. تعلم جيداً ما نقوله ، فالقطب الدردير.. يتكلم عن حال السكر والدهش - كما هو واضح - وهو حالُ أهل وحدة الشهود ؛ ولذا اعتبره حالَ نقصٍ ؛ لأنَّهم لا يرونَ إلَّا الحقَّ وقد غاب الخلقُ عن ملاحظاتهم ، وهذا نقصٌ ؛ ولذلك كان مِن قوله عندما فسَّر مقام وحدة الوجود أن قال رضي الله عنه :

« ولما تحقق هذا الأستاذ الأعظم بهذا المقام.. قام بحق العبودية ذاكراً ولآلاء ونِعَم ربه شاكراً » انتهىٰ

وهذا يدلُّك علىٰ أنَّ صاحبَ وحدة الوجود.. صاحبَ صحوٍ ، وذاك الذي في حال وحدة الشهود.. صاحب مَحوٍ ، والإمام يدرك جيداً الفرقَ بينَهما ، لا كما يوهِم الأستاذُ بأنَّ القطبَ الدرديرَ يُطلقُ

ألفاظـاً ويريـد غيـر معانيهـا !

وكذلـك قـال القطـب الدرديـر رضـي الله عنـه عنـد شـرح مقـام وحـدة الوجـود :

« وهـذا هـو عيـنُ الاستسـلامِ والانقيـادِ إلـىٰ الله ، **وهـو مقـام البقـاء بـالله بعـد الفنـاء بـالله** ؛ ولـذا قـال في مناجـاة أحبابـه : « أسـلمتُ لله ، فنيـتُ في الله ، بقيـتُ بـالله » ، **وهـذا شـأن مَـن لا يـرىٰ سـوىٰ الله** »[1] انتهـىٰ كلامـه رضـي الله عنـه ، فانظـر يرحمـك الله ، فهـو شـأن مـن لا يـرىٰ سـوىٰ الله .

وقـال أيضـاً رضـي الله عنـه عـن معنـىٰ مقـام وحـدة الوجـود ، وهـو نـص ماتـع منـه قـدس الله روحـه :

« **وأمـا الخاصَّـة** : فلـم يقنعـوا بذلـك ؛ بـل مزَّقـوا نفوسَـهم بالرياضات وتـركِ المألوفـات ؛ حتـىٰ صَفَـتْ أرواحُهـم ؛ فشـاهدوا ذلـك حقـًا ببصائرهـم ، **وأنَّ الوجـودَ إنمـا هـو للحـق وحـده** ، فمَـن كانَ هـذا مَشْـهَدُهُ.. فهـو المتحقِّـقُ بالوحدانيـة الحقيقيَّـة ؛ **لأنَّـه يُشـاهد الحـقَّ والخلـقَ ولا يـرىٰ مع الحـقِّ غيـراً** ، وهـذا الـذي لـم يحتجـب بنورِهـا

---

(١) « مشكاة الأسرار » ص٧.

عـن رؤيـة مَظاهرهـا ؛ بـل **بقـيَ** بربـه عنـد فنـاء نفسـه ، وهـذا التَّـوحيـد هـو التوحيـد القائـم بـالأزل ، وصاحـب هـذا التوحيـد هـو الـذي يصـح لـه أن يقـول في خطابـه : **يـا مـولاي يـا واحـد** »[1] انتهـىٰ كلام القطـب الدرديـر رضـي الله عنـه .

فانظـر إلـىٰ قولـه ودقّـق فيـه جيـداً حيـث قـال : « **فهـو المتحقـق بالوحدانيـة الحقيقيـة ؛ لأنـه يشـاهد الحـق والخلـق ولا يـرىٰ مـع الحـق غيـراً** »

والسـؤال الـذي نطرحـه : كيـف يُشـاهد الحـقَّ والخلـقَ ، ولا يـرىٰ مـع الحقِّ غيـراً ؟!

هـذا سـرُّ مقـام البقـاءِ ، وهـذا مقـامُ الكمـال ، وهنـا يُجيـب القطـب رضـي الله عنـه كمـا سُـقناه سـابقـاً ؛ وهـو قولـه :

« وهـو أن لا يَشـهد مـع الحـق سـواه ؛ بـأن لا يـرىٰ العبـدُ الخصوصـيُّ سـوىٰ ذاتٍ واحـدةٍ ، لا أبسـط مـن وحدتهـا ، قائمـةٍ بذاتهـا ، لا تقبـل الكثـرةَ بوجـهٍ ، مقوِّمـةٍ لتعيُّناتهـا وشـؤونها التـي لا تتناهـىٰ ، **وأنْ لا تَـرىٰ أنَّ تلـك التعيُّنـات هـي عيـنُ العَيـن المُعيِّنـةِ لهـا ولا غيرهـا ؛ بـل تلـك**

---

(١) « مشكاة الأسرار » ص١٢ .

التعينات.. قائمة بقيام الحق تعالىٰ لا بنفسها ، فهي كالظل الذي لا وجود له إلا بوجود الشخص القائم ؛ **فالوجود الحَقِّي إنما هو للذَّات الواحد الذي ظهرت آثارُه في تعيُّناته الفَيئيَّة** ، وهذه الوحدةُ بهذا الاعتبارِ.. هي المسمَّاة بـ« **وحدة الوجود** » ؛ **إذ ما سواها شؤونٌ ومَظاهر وتعينات لذات الواجب الوجود** ؛ حتىٰ كأنَّ وجودها بالنسبة إليه تعالىٰ عدمًا وهباء ؛ **فلم يكن في الحقيقة وجود إلا للواحد** »

انتهىٰ كلامه رضي الله عنه

قارنوه بقول الأستاذ جاد الله بسام.. لتجدوا أنَّه يَردُّ علىٰ القطب الدردير كلامَه ، حيث قال الأستاذ :

« فإن ما نسميه بـ« العالَم » ليس له وجود في نفسه عند أصحاب الوحدة الوجودية ، خلافا لما صرح به القطب الدردير ، بل هو عندهم مجرد شأن من شؤونات الوجود المطلق ، وتعين من تعيناته ، ومظهر من مظاهره ، فلا اثنينية عندهم ، ولذلك سموا بأهل الوحدة ، وأما المقامات التي يتكلم عنها القطب الدردير في مراتب في التوحيد الشهودي ، وليست من مذهب الوحدة في شيء »

انتهىٰ كلام الأستاذ !!

ومن حق القارئ أن يتعجَّب هنا بتقويل الأستاذ جاد الله.. القطبَ الدردير مالم يقله ، بل بتقويله عكسَ مطلوبه الذي يصرِّح به ،

وذلك بناءً علىٰ سوءِ فهمه للقضية جميعها ودخولِه فيما لا يحسنه ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

وإن شئتَ ما هو أغرب من هذا ؛ فهو تناقض الأستاذ جاد الله بشرح كلامه نفسَه ، فقد قال في أحد تعليقاته المُميَّزة الجميلة :

« يريد القطب الدردير أنَّ بعض من كانت الوحدانية الحقيقية مشهده قد يحتجب بهذا المشهد عن رؤية الخلق الذي هو مظاهر الواحد سبحانه ، وهؤلاء محجوبون بربهم عن غيره ، وهم أدنىٰ بالنسبة لمن فوقهم ، وبعضهم الآخر لم يحجبه شهود الوحدانية الحقيقية ، بل انضاف إلىٰ فنائهم عن الغير ؛ بقاء بالله ، فلم يحتجبوا عن رؤية المظاهر ، فهؤلاء لهم البقاء بعد الفناء ، فهم أعلىٰ ممن قبلهم ، وهما مشتركان في شهود الوحدانية الحقيقية ، فهذان صنفان : الأول فان لا بقاء له ، والثاني فان باق » انتهىٰ كلام الأستاذ وهو حقٌّ وجميل .

فقد وصف الأستاذُ جاد الله الخلقَ بالمظاهر للواحد سبحانه ، وفرَّق بين وحدة الوجود ووحدة الشهود ، وجعل من أصحاب الفناء(وحدة الشهود) أصحابَ نقصٍ ؛ لعدم رؤيتهم المَظاهر للواحد الظاهر سبحانه ، وكأنَّ التَّعليقَ لم يكن له وليس من لسانه ؛

لأن الرسالة التي أنشأها الأستاذ.. كانت للردِّ علىٰ مثل هذا الكلام !

فإما أن يكون هذا التَّعليق له أو ليس كذلك ، فإن كان له.. فقد وقع بالتَّناقضات كما رأينا ووقع بقولٍ مالا يَعيه ، وإن لم يكن له – وهو الغالب – فكذلك تكون المصيبة أعظم !

وفي هذا كفاية لمن أوتي ولو قليلاً من الاعتبار ، وإلىٰ الله تصير الأمور .

تنبيه :

مما يجدرُ بنا التَّنبيه عليه وهو الأمر المُضحك المبكي معًا ؛ أنَّ الأستاذ جاد الله شرح عبارات القطب الدردير علىٰ تصحيف شنيعٍ فيها ، وسبق أن أشرنا إلىٰ شيء من ذلك ، والغريب أنه لم يكشف هذا التَّصحيف الذي وقع في نسخته ، كقول الإمام رضي الله عنه :

« وبعض الصَّالحين ينسبه إلىٰ بعض العارفين ليُضلَّ به النَّاس ، ولو بأنهم يدسون عليهم ذلك في بعض كتبهم الغريبة ، أو أنهم يؤلفون كتبًا من أصلها وينسبونها إلىٰ مَن اشتهر بالمعرفة ؛ ليُضلُّوا النَّاسَ ، فليحذر المؤمنُ الموحِّد مِن ذلك ، والله الموفق » انتهىٰ كلام القطب رضي الله عنه.

والعبـارة الصحيحـة ببداهـة العقـل هـي : « **وبعـض الضَّالِّيـن ينسبه إلـىٰ بعـض العارفيـن..** »[1] وليـس : « بعـض الصَّالحيـن ينسـبه ... » !

والعجـب أن الأسـتاذ جاد الله شـرح العبـارة علىٰ تصحيفهـا وخطئها ، وهـي أنَّ بعضَ الصالحيـن ينسـب الضـلالَ لبعـض العارفيـن ـ والعيـاذ بـالله – فقـال الأسـتاذ جاد :

« ولـم يكتـف الإمـام الدرديـر بذلـك ، بـل إنـه ذكـر قضيـة أخـرىٰ مهمـة ، وهـي ظاهـرة تسـتحق الدراسـة والتأمـل ، **وهـي نسـبة بعـض الصالحيـن ؛ هـذا المذهـب لأهـل السـنة والجماعـة بواسـطة نسـبتهم إيـاه لبعـض العارفيـن ، فـكأنَّ هـؤلاء الصَّالحيـن يقولـون : إن العـارف إذا قـال شـيئا فقـد تحقـق – بمجـرد قولـه – أن قولـه هـذا هـو مـن جملـة مذهـب أهـل السـنة والجماعـة ، وأنـه موافـق لهـم ، وهـذا أمـر خطيـر جـدا** ، وهـو مخالـف للمشـهور المعلـوم المسـتفيض عنـد صغـار النـاس وكبارهـم ، مـن أن الحـق لا يعـرف بالرجـال ، ولكـن الرجـال يعرفـون بالحـق ، بـل العـارف عنـد أهـل الحـق هـو مـن طابـق عرفانـه مذهـب أهـل السـنة والجماعـة ، ولذلـك فـإن أهـل السـنة لـم يعـدوا الكشـف والإلهـام مـن الأدلـة الشـرعية المعتبـرة كمـا هـو معلـوم مـن محلـه.

---

(١) « مشكاة الأسرار » ص٢٨.

وانظر كيف أشار الإمام الدردير إلىٰ خطر هذه القضية ، قال : « وبعض الصالحين ينسبه إلىٰ بعض العارفين يضل به الناس » ، فانظر يا أخي - أعانك الله - كيف أن الإمام الدردير قطع دابر المسألة قطعـًا ، ولم يقبل في ذلك توفيقـًا ولا تلفيقـًا ، **ولو كان هذا القول الباطل منسوبا من بعض الصالحين لبعض العارفين** ، وكأن مقتضىٰ كلام الإمام الدردير أنه لا عرفان ولا صلاح مع اعتقاد هذه الضلالات » انتهىٰ كلام الأستاذ جاد الله علىٰ ركاكته وسوءِ فَهمِه وفُحْشِ تكلُّفاتِهِ !

فكيف سمحَ فكرُ الأستاذ جاد الله بسام بأنْ يكونَ بعضُ الصَّالحين يفعل عمداً ما يُضلُّ الناس به ؟! وهو قول سيدي الدردير « **ليضلَّ به الناس** »

أم كيف سمح له أن يصحِّحَ هذا اللفظ الظاهرَ التَّصحيفِ وفيه نسبة الصَّالحين إلىٰ الكذب والافتراء والدَّس علىٰ العارفين ؟!

فأيُّ صالحٍ هذا الذي يفعل مثل هذا الفساد ؟!

فكم رأينا في هذه الرسالة من تصحيفٍ شنيعٍ شرحه الأستاذ جاد الله علىٰ ما هو عليه من فساد ، وكان الواجب علىٰ من يخوض في هذه المواضيع .. أن يعرف الصَّالحَ من الفاسدِ من الألفاظ ، فكيف

بمـن يزعـم تخصُّصَـه ؟

وختم الأستاذ جاد الله بسام رسالته بقوله :

« هـذا مـا حضـرني في جـواب الأخ المذكـور ، ومنـه يعلـم أن القطـب الدرديـر وغيـره مـن الأئمـة المذكوريـن عنـده في هـذه الرسـالة كالسـيد مصطفـىٰ البكـري والوفائيـة ليسـوا قائليـن بوحـدة الوجـود الفلسـفية الباطلـة عنـد الإمـام الدرديـر ، وأنهـم مبرؤون منهـا عنـده ، ولـو فرضنـا أنـه ثبـت أن قائـلا منهـم يقـول بهـا ، فهـو ليـس علـىٰ نهـج الجـادة أيـا كان » اهـ كلام الأستاذ ، وهـو مـن السـخف بمـكان كمـا ترونـه ، ولا يحتـاج تعليقـاً أكثـر مـن إيـراده كمـا هـو بعدمـا رددنـا عليـه كلامـه كلَّـه مِـن أوَّلـه إلـىٰ آخـره ولله الحمـد .

خاتمة :

أحببنا أن نضع في هذه الخاتمة بعض كلمات القطب الدردير قدس الله روحه ، الممزوجة بالمعارف الأكبرية إضافةً لما نقلناه سابقًا ؛ لتكون مِسكَ الختام ، حشرنا الله تحت لواء محبتهم ، آمين :

- **قال رضي الله عنه :**

« الظاهر في آثار قدرته **حتىٰ لم يُرَ إلا إيَّاه ؛ إذ الغير إن حقَّقتَ وحدته.. كالخيال** ، وإن أمعنتَ النَّظرَ.. **فإنَّما هو مجرَّدُ مِثال** »[1] اهـ

- **وقال رضي الله عنه شارحا بيتَ سيدي عمر ابن الفارض قدس الله روحه :**

« ومِنِّيْ علىٰ إفرادِها كُلُّ ذَرَّةٍ
جَوَامِعُ أَفعالِ الجوارِحِ أَحْصَتِ

وهذا مقامُ مَن كان متحقِّقًا بمظهريَّة الحضرةِ المُسماةِ بـ« **حضرة أحدية الجمع** » و« **مقام المحو في عين الأحدية** » ، **وهذا الطَّور** مِن المعرفةِ.. **إنَّما يدرك بالذَّوق لا بالعقل** ، ولا يذوقه العبدُ

(١) « مشكاة الأسرار » ص١٤.

مـادام متلبِّسًـا بصـور الكائنـات ، ولـم يتخلَّـص قلبُـه مِـن ربقـة قيـود التَّقييـدات ، فـإنْ خرجـت النَّفْسُ عـن هواهـا.. قويـت قُواهـا ونالـت مناهـا ، وفنيت في حب مولاها ، وبقيت بما أولاها ، وهي بعد ذلك لا تقع في المخالفات ، ولا يخفىٰ عليها شيء من أسرار التَّجليات ؛ كمـا قـال الأسـتاذ سـيدي محمـد وفـا صاحـب هـذه التوجُّهـات :

وبَعْدَ الفَنَا في اللهِ كُنْ كيفَمَا تَشَا

فَعِلمُكَ لا جَهْلٌ وفِعلُكَ لا وِزْرُ

وصحَّ لهـذا العـارفِ الذَّائقِ لهـذا المقـام أن يقـول : « **هـو أنـا ، وأنـا هـو** » ونحو ذلك مما يُنقل عنهم من الألفاظ التي **لا يفهم معناها إلا بفهـم مـا ذُكِرَ عنهـم** »[1] اهـ

- **وقال رضي الله عنه**[2] :

« ومـن ذلـك قـول بعضهـم : « أنـا اللـوح ، أنـا الكرسـي ، أنـا القلـم الأعلىٰ » ، وذلـك لاستغراقه في حضـرة « **عيـن أحديـة الجمـع** » ، وهي التي أشـار إليهـا سـيدي عبـد السـلام بـن مشـيش بقولـه : « **وأغرقنـي في عيـنِ بحـر الوحـدة ؛ حتـىٰ لا أرىٰ ولا أسـمع ولا أجِـد ولا أحـسَّ إلَّا**

(١) « مشكاة الأسرار » ص١٥-١٦.

(٢) « مشكاة الأسرار » ص١٦-١٧.

بها » ، وأشار إلىٰ ذلك أستاذنا السيد مصطفىٰ البكري بقول :

وفي سَعْدِ آبادٍ أقَامَ مُنَادِمًا
ضَواح ضَواح فِي المَحَبَّةِ هامُوا

وفي قَصْرِ عِزِّ العِزِّ أَمْسىٰ مُضاجِعًا
شُموسًا لَهَا شَمْسُ الكِيانِ خِتامُ

وصِرْنا كَهَمْزٍ أوْ كَحَرْفٍ مُشَدَّدٍ
إذا مَا اعْتَنَقْنا والدُّمُوعُ سِجَامُ

وكنتُ أنا مَنْ قَدْ هَوَيْتُ وهُمْ أنَا
ومَا ثَمَّ غَيْرٌ في الوجُودِ يُقَامُ

قلتُ (**ياسر**): إنَّ سعد آباد هذه هي (أرض عالَم السِّمسمة) الَّتي تكلَّم عنها الشَّيخ الأكبر في « الفتوحات المكيَّة » ، وقد تكلَّم عنها القطب الدردير في غير هذه الرسالة قائلاً في شرحه لحزب العارف كريم الدين الخلوتي قدس سرهما :

« **سعد آباد** : وهي الأرض البيضاء ، والأرضُ المطهَّرة ، وتسمَّىٰ « **أرض السِّمسمة** » يدخلها كبار الأولياء بالأرواح ، وهي مواطن الحكمة والأسرار ، وفيها يتأتَّىٰ الجمعُ بينَ الضِّدَّين ، وهي أرضٌ

متَّسعةٌ جداً كما أخبر به أولياء الله »[1] اهـ

- **وقال رضي الله عنه ناقلاً عن سيدي محمَّد وفا قدس الله روحه :**

« قال رضي الله عنه في « الأنفاس الرحمانية » : « رأيتُ مَن يَرَىٰ ولا يُرَىٰ ؛ فلا تسل عن حديث الجمع كيف جرىَ :

فقلتُ : علَّمتَنِي عِلْمَ كلِّ شيءٍ من وجهِ ما هو ، فما هو العلم الذي استأثرتَ به عن خلقك ؟

قال : أنتَ .

قلتُ : فمن أنا ؟

قال : سبحان الله ، أنا وأنتَ .

قلتُ : فمن أنتَ وأنَا ؟

---

(١) ص١٤٠ ـ دار الإحسان

قال : الله الله ، لا أنتَ ولا أنا .

خرس الِّلسان عن البيان ، انقطع الكلام ، والسَّلام »[1] اهـ

- **وقال رضي الله عنه عن الحقيقة المحمديَّة :**

« هي في التَّحقيق.. مقوِّمَةٌ لكلِّ حقيقةٍ ؛ لأنها أصلُ النَّشأة ، ومحلُّ التَّعيُّنِ الثَّاني عند أهل المَعاني »[2] اهـ

- **وقال رضي الله عنه :**

« فقد تضمنت هذه الأسماء الخمسة.. سائر أسماء الله الحسنىٰ ، وقد علمتَ حُسْنَ التوجُّه والخطاب بها ، وحسن ترتيبها ، وحسن السير بها إلىٰ أن نزل منزل الكمال المحمدي بعد الفناء في الله ؛ **فصار باقيًا بالله في عين الجمع وبقاء البقاء** ؛ فلا يشغله مقام الحقِّ عن الخلق ، ولا رعاية الخلق عن القيام بواجب الحق ، **وهذا مقام كمال التَّمكين** »[3] اهـ

---

(١) « مشكاة الأسرار » ص٢٣ .

(٢) « مشكاة الأسرار » ص٢٥ .

(٣) « مشكاة الأسرار » ص٢٦ .

نكتفـي بهـذا القـدر مـن نصـوص العـارف القطـب الدرديـر رضـي الله عنـه ، وهـي صريحـة لا تقبـل التأويـل بأنَّـه رضـي الله عنـه.. يقـرِّرُ المعـارفَ الأكبريَّـة ومصطلحاتهـا علىٰ أتـمِّ درايـةٍ بهـا ، **فرضـي الله عـن صاحـب « الخريـدة البهيـة » والمعـارف النفيسـة الأكبريـة ، وجـزاه عنـا خيـر الجـزاء .**

والحمد لله رب العالمين